صفقات رابحة

خالد أبو شادي

كيف تحجز مقعداً في الجنة؟
الإهداء
إلى من أجاب النداء .. ورفع اللواء
هذه جنة الخلد تمشي على الأرض بين يديك
والحور تهتف في الأسحار تهيم شوقاً إليك
و رحمات الله المنزلة تعرض نفسها عليك
وصوت الحادي ينادي:
الدنيا ميناء يتزود منه المسافرون إلى الجنة أو النار
إيمان لا يتبعه عمل هباء
وشراء الجنة دون دفع الثمن هراء.
الرحلة لا تمر على طريق الكسل
والقافلة ليس من زادها طول الأمل
أظهر لله من نفسك قوة.. أقر عين نبيك في قبره
جدّ في غيظ عدوك الذي أخرج أبويك من الجنة
ادفع ثمن الصحبة إن أردت فإن مجالسة النبيين في الجنة غالية
كحّل عيونك بالسهر. واسرج جوادك للسفر
واعلم أن هجر الوسادة ثمن السيادة
اصدق مع الله ولو مرة وسترى العجب
أنت مدعو على موائد الكرم الإلهي والأجر الرباني
وحق على المزور أن يكرم زائره
مرحباً بك

المقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد ... فقد أنعم الله عليّ بمنحة في صورة محنة خلوت فيها إلى نفسي لأخط هذه الصفحات والتي أسميتها (صفقات رابحة)، وهي عبارة عن فصول في مدرسة الترغيب والترهيب، تلك المدرسة التي تعد من أنجح المدارس في تقويم النفس ودرء عيوبها وحثها على بذل الطاقة واستفراغ الوسع في طلب الجنة وحرث الآخرة، ولولا هذه المدرسة لكانت القلوب رقعة خربة في غياب ري الإيمان وبواعث الهدى.

قال يوسف بن أسباط: "خلقت القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات، ولا يمحو الشهوات إلا خوف مزعج أو شوق مقلق" (١) وفي هذا السياق يجيء هذا الكتاب ليحقق هذا الهدف، وقد عرضت فيه إلى مشروعات إيمانية مبيناً أرباحها أي ثوابها، وتسهيلات تنفيذها أي ما يعين النفس على أدائها، وشروطها الجزائية المترتبة على تركها أي الخسارة التي يتكبدها من ينام عنها.

وهو كتاب أول ما يتوجه يتوجه إلى الشباب ذكراناً وإناثاً وذلك لاعتبارات عدة:

منها أن الشباب يمتاز عن غيره بأنه أصفى ذهناً وأقل انشغالاً وأقوى صحة وأمضى عزيمة (فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله، وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها، وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلها إلا خشباً)(٢) .

ومنها أن من شب على شيء شاب عليه، فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر، وقل عادة اعتدتها في صغرك فارقتها عند كبرك، فأنت في شبابك تملك القوة البدنية والروحية التي تستطيع بها غرس الفضائل في نفسك غرساً يستعصي على الاقتلاع مهما طال بك العمر وتغيرت الأحوال.
ومنها أن هذه المرحلة العمرية ستكون موضع سؤال في اختبار الآخرة لا بد له من إجابة (وعن شبابه فيم أبلاه)، وهي مع ذلك سريعة الانقضاء كمثل البرق الذي يضيء يسيراً يسطع بالنور ثم يذهب فجأة ويرجع بالظلام أو كمثل سحابة الصيف التي لا تلبث أن تنقشع سريعاً.
ومنها أن الشباب صار هدفاً لشياطين الإنس والجن، وحقل تجارب لمحاولات إفسادهم وتضليلهم، يريدونه قوة مهملة في غياب الإيمان مؤاخياً آثامه، عاشقاً أوزاره، ضعفه في بره، وعزمه في غيه، يريدونه قرداً يقلّد الغرب في كل خصاله إلا الفضائل، وتلميذاً يتتلمذ على يد إبليس ثم يرتقي في سلم الإبليسية إلى أن يصبح أستاذاً لإبليس.

_____
(١) سير أعلام النبلاء (١٧٠/٩) – شمس الدين الذهبي – ط. مؤسسة الرسالة.
(٢) وحي القلم (٢٣١/٢) – مصطفى صادق الرافعي – ط. دار المعارف.

ومن هنا فقد كتبت هدا الكتاب لشباب الإسلام الصاعد وعرقه النابض وأمله الوثّاب ليكون بمثابة شهر صوم .. بتصفح صفحاته تفتح للخير أبواب وتغلق للشر أمثالها، وبقراءة كلماته تصفد شياطين الإنس والجان، وتتنزل ملائك الرحمن، وتظلنا سحائب الغفران، فإذا بمن نظر في الكتاب يقول بعد ثبوت رؤية هلال الهدي: اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام. وبانقشاع الظلام وبزوغ الفجر يرتفع صوت المؤذن معلناً مولد عهد جديد أهم ملامحه:
الإمساك عن المحارم، والصيام عن الآثام، والاستغفار في الأسحار، وانتظار الأذان بالأشواق، والتهافت على تكبيرة الإحرام، والوله بالصف الأول، والهذر بالذكر، والأكل بالحلال، وملازمة الكتاب، ومعانقة السنة، وتفقد مجالس الصالحين، والتنافس في الخيرات، ويستمر موسم الصوم قائماً إلى أن تؤذن شمس الحياة بالمغيب حينها يفطر الصائمون على صوت أدان ندي ترفعه على أسماعهم الملائكة تزف لهم البشرى: (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) ليجدوا فيها موائد الإفطار في الانتظار (في مقعد صدق عند مليك مقتدر).
هذا الكتاب صيحة تنادي فيك: قم واصح يا نائم لتوحد الدائم، الصلاة خير من النوم، والتجلد خير من التبلد، العالي يرجو المعالي، والدون يقنع بالدون، من جد وجد ومن زرع حصد، جنة الفردوس تبغي ثمناً، ومهور العين ليست رخيصة.
وهو ومضة أمل تسرج لك مصباح نور في ظلمة يأس فتبدده، وسفينة هداية ترفع لك لواء رشد في متاهة غي فتهديك، وتمد لك طوق النجاة لتتشبث به قبل أن يبتلعك طوفان الحياة، ولا يزال الأمل قائماً مادام في القلب خفقة من حياة، وفي الصدر أنفاس تتردد، وفي الجسد عرق ينبض، وفي الأجل لحظة عمر باقية.

وهو صفحة جديدة تطوي صفحات قديمة طالماً سطر فيها ملك السيئات بقلمه، وآن له الآن أن يستريح ويفسح المجال لملك الحسنات يسطر صالح الأعمال لترفع الصحف بيضاء مسفرة بعد أن ظلت دهراً ترفع سوداء مظلمة.

وهو علامة حب واصطفاء فلا يرشد الله إلى طريقه إلا من أحب، ولا ييسر سبل الهدى إلا لمن اصطفى لذا يُهْدي لقراءة الكتاب من شاء له الخير في الكتاب.
فخذه مني – أخي القارئ – أعواد ريحان زكية الرائحة يفوح شذاها من بين الأسطر والكلمات، طوّفت في بساتين القرآن وحدائق السنة وروضات السلف وقطفتها لك فاقبل رياحيني فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الريح".(١)
وقبل تقليب الصفحات وتدفق الكلمات أستجلب رحمات الله وأستمطر بركاته ويلهج لساني بالدعاء:
اللهم افتح بهذا الكتاب آذاناً صماً عن آياتك، وقلوباً غلفاً عن أنوارك، وأعينا عمياً عن آثار قدرتك اللهم استعمل بسببه أبداناً في طاعتك، وأقداماً في خدمتك، وألسنة في ذكرك، اللهم داوِ به قلوباً أعيتها كثرة الذنوب، ونفوساً أفسدها طول الركود، وانتشلنا به من آبار غفلاتنا، ومهاوي شهواتنا، ومصارع أهوائنا، أنقذنا به من أنفسنا التي بين جنوبنا، وادفع به عدواً يتربص بنا في صباحنا ومسائنا، وقو به بواعث الإيمان الدفين في أعماقنا، واجعله حجة لنا بين يديك، تشهد بصدق العبودية لك، وإخلاص التوجه إليك، وبذل الأوقات فيك، اللهم لا تعذب عبداً أرشد العباد إليك، ودلهم عليك، وحببهم فيك.
واختم لنا اللهم بخاتمة السعادة أجمعين.
اللهم آمين
الفقير إلى عفو ربه
د. خالد أحمد أبوشادى

مشروع ١
لا تتبع النظرة النظرة
وقفة إيمانية
أعد العدو عدته، وأخذ أهبته، ووتر سهمه في كبد قوسه، ثم أطلقه فأصاب الهدف، وما هي إلا لحظات حتى سرى السم إلى الجوارح فصارت جوارح .. اللسان تكلم، والقدم سعت، والجسد انتفض، ودارت العجلة ..
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
قبل التنفيذ:
مشروع مهم

_____
(١) رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٦٣٩٢

} لأن النظرة سهم مسموم فأثرها يستمر وإن غاب المنظور إليه، تشغل فكراً فتورث هماً، وتبذر شهوة فتنبت هوىً شأنها شأن السهم المسموم فإن السم يظل يسري منه إلى الجسم وإن نُزع السهم من موضع الإصابة.
} لأن هيبة الله في القلوب قلّت، والجرأة على محارمه زادت، وتكرار النظر إلى الفواحش أورث القلب بلادة في الإحساس واستئناساً بالذنب وإدماناً له وفرحاً عند الظفر به.
} لأن أشباه يوسف قلوا، وعدُوّات الحور العين أطللن من شاشات التلفاز وصفحات الجرائد والمجلات، وأخوات امرأة العزيز عجت بهن طرقات المدينة في حصار يشبه ما فعلته أختهن من قبل (وغلّقت الأبواب)، وأبرزت كل واحدة منهن مفاتنها وكشفت ما استتر من زينتها ولسان حالها يقول للشباب: (هيت لك).
} لأن المرأة أقوى أسلحة الشيطان وأفتكها فإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وما ترك النبي صلى الله عليه وسلم على الرجال فتنة أضر على الرجال من النساء، وإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وهذه كلها إنذارات من صاحب الرسالة وقد أعذر من أنذر.
} لأن الشهوات استعرت، والعورات انكشفت، وتجارة الجسد راجت، والحرام أطل برأسه، والحياء صار سلعة نادرة، وطريق الحرام بات ممهداً، ووضعت العراقيل في طريق الحلال، وارتدى المنكر ثياب المعروف، وأطفئت النار بمزيد الحطب، واختلط الحابل بالنابل، وصارت ظلمات بعضها فوق بعض.
أرباح المشروع:
نشوة الانتصار:

استشعار حلاوة الإيمان ولذة المجاهدة وعاقبة الصبر وفرحة الانتصار على بواعث الشهوة ورسل الهوى، وهذه هي سيماء الرجولة الحقة والشجاعة الخارقة، سمو عن دنايا وتطهر من أدناس، وتحرر من استرقاق ونهضة للمعالي.

ليس الشجاع الذي يحمي مطيته ... ... يوم النزال ونار الحرب تشتعل
لكنْ فتىً غَضّ طرفاً أو ثنى بصراً ... ... عن الحرام فذاك الفارس البطل

ولهذا فسر سفيان الثوري قول الله تعالى "وخلق الإنسان ضعيفاً" }النساء: ٢٨{ بقوله : المرأة تمر بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها ولا ينتفع بها فأي شيء أضعف من هذا ؟(١)

لكن قويَّ الإيمان يملك نفسه ويحزم أمره فيغض من بصره لهذا استحق حب الله والوصف بالخيرية على لسان خير البرية صلى الله عليه وسلم الذى قال : "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف".(٢)

الفراسة الصادقة:

تظل الفراسة الصادقة منزلة إيمانية محتكرة لمن غض بصره محجوزة له لا يزاحمه فيها إلا مثيله، وهي التي تميز بين الصادق والكاذب بين المحق والمبطل بين الباكي والمتباكي وهذه أهم ثمار غض البصر وأجلها قال شاه بن شجاع الكرماني: "من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة" (٣)

ويبين ابن القيم السر في هدا فيقول:

"وسر هذا أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله عليه عوضه الله من جنس ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم ير من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه، وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون".(٤)

---

(١) ذم الهوى ص٧٨ – ابن الجوزي- ط. دار الكتب العلمية.
(٢) رواه مسلم وأحمد وابن ماجة عن أبي هريرة وحسنه الأباني في ص ج ص رقم ٦٦٥٠.
(٣) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ص ٥٩ – ابن قيم الجوزية – ط. مكتبة الدعوة
(٤) السابق ص ٦٠

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه علماً من أعلام الفراسة وشيخاً من شيوخها استحيا من الله فاستحيت منه ملائكة الله، وغض طرفه عن الآثام فأورثه الله فراسة يكشف بها كل من أطلق بصره وزنا به ظاناً أن أحداً لن يعرف من أمره شيئاً، فإذا بعثمان يعلم ويكشف لا ليفضح بل لينصح. دخل عليه رجل فقال له عثمان : يدخل عليّ أحدكم والزنا في عينيه، فقال: أَوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : "لا ولكن فراسة صادقة".(١)

حماية القلب من شيطان يتسلل:

القلب بيت والعين بابه، ولا يدخل لص البيت إلا والباب مفتوح، فإذا دخل سرق حلية الإيمان وجوهر التقوى، وترك القلب خراباً في خراب، فاحذر هذا اللص فإنه خفيف الحركة تكفيه لحظة واحدة ليتسلل – لحظة واحدة فقط – ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة قال: "اصرف بصرك".(٢)

أي أحكم إغلاق الباب وضع عليه حراسة أمن مشددة من جنود المراقبة، ولا تفتحه ولو لحظة واحدة، عندها يدب اليأس إلى قلب إبليس فيرجع خائباً ويتركك سالماً.

لما وقع النزاع بين القلب والعين واتسعت هوة الخلاف بينهما كل منهما يلقي باللائمة على الآخر فيما

حل من سقم ومن ألم تحاكما إلى الجسم الذي حكم بإدانة العين
قلبي يقول لطرفي: هجت لي سقما ... ... والعين تزعم أن القلب أنكاها
والجسم يقسم أن العين كاذبة ... ... وهي التي هيجت للقلب بلواها
لكن العين رفعت القضية للاستئناف فعرض النزاع مرة أخرى وبعد المداولة أصدر القاضى حكماً بالإدانة لكليهما، وجاء في حيثيات الحكم: العين والقلب شريكان في جريمة قتل واحدة تقاسما فيها الأدوار.
أنا ما بين عدوين ... ... هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى الـ ... قلب والمقصود حتفي
اجتماع القلب على الله:

_____
(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٤٣ – ابن قيم الجوزية – ط. مكتبة المدني
(٢) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن جرير بن عبد الله كما في ص ج ص رقم (١٠١٤) .

يقول ابن القيم في إحدى فوائده: "إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام"(١).
لأن القلب الذي تنقش على جدرانه صورة الحق تنمحي فيه صورة الخلق، فلا يعود يرى سوى ربه، ولا يهمه إلا رضاه وذلك في سائر أحواله في سر وجهر أو جد وهزل في حديث أو صمت في حل أو ترحال وهذه هي البصمة التي يتعارف فيها الصالحون وسط الزحام، أو هي العقد غير المكتوب الذي وقعت عليه ضمائرهم ونفوسهم، وأمثال هؤلاء جعلوا الهموم هماً واحداً فأحسوا بحلاوة المناجاة ولذة الخشوع ونعيم السير على منهاج رب العالمين فوصلوا بينما غيرهم يشكو التيه.
نضرب لذلك مثلاً: مسافر قصد سفراً وحدد وجهته، فحزم متاعه وأعد زاده واستفرغ الجهد والطاقة في السير الحثيث مصطحباً معه عزمه وتصميمه على بلوغ الوطن، وهو مع هذا يحذر كميناً على هيئة زهرة زاهية الألوان فوَّاحة العبير تعرقل سيره، فتؤخره عن الوصول، فان استمر على عزمه ويقظته وصل وطنه في أسرع وقت وأتم عافية، أما إن خدع وسقط فهذا كيف يصل؟ زمان التزود قصير ما يحتمل التأخير فكيف بمن نام فيه؟؟ وقت الرحلة لو بذل كله في المسير خيف عدم الوصول فكيف لو تناولته أيدي البطالة؟؟
الوطن : الجنة، والكمين: النظرة، وأنت المسافر.
استهوى عالم الحيوان ابن الجوزي فأخذ يراقب ما فيه عن كثب، وضرب مثلاً آخر منه ليزيد الصورة وضوحاً لمن يشكو عدم الفهم وانخفاض مستوى الذكاء فقال: "تأملوا إلى الفرس إذا قدم إلى الماء الصافي كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدر أتدرون لم ؟ لأنه يرى صورته في الماء الصافي وصورة غيره فيكدره حتى لا يتبين فيه الصور فيتهنى بالشرب".(٢)
بركة الطاعة:

_____
(١) الفوائد ص ٨٩ – ابن قيم الجوزية- ط. دار النفاش
(٢) المدهش ص ٤٢٦،٤٢٧ – ابن الجوزي – ط. دار الكتب العلمية

أمر الله عباده المؤمنين بالغض من الأبصار لأن صاحب الصنعة أدرى بصنعته، والآمر بإصلاح النفوس والقلوب أعلم بما فيه صلاح النفوس والقلوب، وأهل التقوى والمغفرة خبير بالطرق الموصلة إليهما .. من ذا الذي لبى نداءه فما سعد؟؟ من ذا الذي أجاب داعيه فما رضي؟ من ذا الذي ذل له فما عز؟؟ من ذا الذي تاجر معه فما ربح؟
قال عز وجل: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما

يصنعون" }النور : ٣٠{ وقال الإمام الحجة أبو حامد الغزالي: " واعلم أني تأملت هذه الآية فإذا فيها مع قصرها ثلاث معانٍ عزيزة: تأديب وتنبيه وتهديد، فأما التأديب فقوله تعالى: " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم " ولا بد للعبد من امتثال أمر السيد والتأدب بآدابه وإلا كان سيئ الأدب فيحجب فلا يؤذن له في حضور المجلس والمثول بالحضرة، فافهم هذه النكتة، وتأمل ما تحتها فإن فيها ما فيها.
وأما التنبيه فقوله تعالى: "ذلك أزكى لهم" وينطلق على معنيين والله أعلم الأول: ذلك أطهر لقلوبهم والزكاة: الطهارة، والتزكية: التطهير، والثاني: ذلك أغنى لخيرهم وأكثر، والزكاة في الأصل: النمو، فنبه على أن في غض البصر تطهيراً للقلب وتكثيراً للطاعة، والدليل على ذلك أنك إن لم تغض بصرك وأرخيت عنانه تنظر في ما لا يعنيك فلا تخلو من أن تقع عيناك على حرام، فإن تعمدت قد ؟؟ كبير وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك إن لم يرحم الله تعالى.
وأما التهديد فقوله تعالى: "إن الله خبير بما يصنعون".*
الشروط الجزائية
يقول أبو حامد الغزالي: "لو أن يهودياً أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين مع نقصان عقل وقصور علم ؟!" (١)

_____
(١) إحياء علوم الدين (٤٤٢/٤)

هل تعلمون أن إطلاق البصر من أوسع مداخل الشيطان، فإن البصر جارحة لا تملأ بخلاف البطن فإنه متى امتلأ لم يبق له فى الطعام إرادة ، وأما العين فلو تركت لم تفتر من النظر أبداً ، وتكون النتيجة الحتمية :

احتلال القلب:
قلب الإنسان لا يتسع لشريكين: نور وإلا ظلمة، ملك وإلا شيطان، هداية وإلا غواية. إذا غلب جند الإيمان في القلب كانت نوازع الخير وأنوار الهدى وأدوية الطاعات، وإذا غلب جند إبليس كانت نوازع الشر وآفات الهوى وسموم المعاصي.
وبالنظرة يدخل جند الشيطان القلب ليجاوروا جند الإيمان، لكن الشيطان ملحاح طماع لا يقبل الشراكة، فيظل يتربص ويغوي ويفسد: يلقح النظرة بأخرى إلى أن يحتل نسله القلب كله، ويرفع على أرجائه راية النصر ثم يقدم الشكر لمن يستحق: النظرة
قال ابن سمنون: " أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة أو تمثال ؟! فإذا كان الملك لا يدخل بيتاً فيه صورة أو تمثال: فكيف تدخل شواهد الحق قلباً فيه أوصاف غيره من البشر !؟ "(١)

والصلة بين العين والقلب جد وثيقة، فالعين عين ماء تصب في خليج القلب، فإن تكدر صفوها بفضول نظر أو صورة محرمة تكدر الخليج وتغير طعمه فلا يقربه ملك يلهم بل شيطان يغوي. يا مطلق النظر إذا رتعت العين بِوادي الحسان لاحت في القلب بَوادي الخسران، وإذا حضرت سوق الحرام غاب القلب، وإذا غابت عنه حضر، و (إذا حضر قلبك فنسيم الريح يذكرك، وإن غاب فمائة ألف نبي لا يوصلون التذكرة إليك)(٢)

ولي ألف باب قد عرفت سبيله ... ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

هاوية العشق:
فكما أن أول الحريق الشرر، فأول العشق النظر، بحر العشق إذا علا أغرق، وأخطر شيء على السابح فيه فتح العين في الماء.
عيناي أعانتا على سفك دمي ... ... يا لذةَ لحظةٍ أطالت ألمي
كم أندم حين ليس يغني ندمي ... ... وَيْلي ثَبَتَ الهوى وزلّت قدمي

_____
(١) ذم الهوى ص ٧١
(٢) المدهش ص ٤٧٦

إذا سقط إنسان في هذه الهاوية أصبح إلهه هواه ومعبوده معشوقه يأمره فيأتمر وينهاه فينتهي حلالاً كان أم حراماً عدلاً كان أم عدواناً.

والعشق داء لا يحل بأجساد النابهين المجدّين، لكن له في أبدان الفارغين مأوى وفي أذهانهم وقلوبهم مرعى. قال ابن عقيل: "العشق مرض يعتري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة والمتلمحة للصور لدواعي النفس، ويساعدها إدمان المخالطة فتتأكد الآفة ويتمكن الأنس فيصير بالإدمان شغفاً وما عشق قط إلا فارغ، فهو من علل البطالين وأمراض الفارغين، وما عشق حكيم قط. لأن قلوب الحكماء أشد تمنعاً من أن تقفها صورة من صور الكون مع شدة تطلبها، فهي إن تلحظ تخطف ولا تقف، وقلّ أن يحصل عشق من لمحة، وقل أن يضيف حكيم إلى لمحة نظرة، فإنه مار في طلب المعاني، ومن كان طالباً لمعرفة الله لا تقفه صورة عن الطلب لأنها تحجبه عن المصوّر".(١)

وقد ألف ابن الجوزي كتاباً كاملاً عن العشق وأضراره أسماه (ذم الهوى) عرض فيه إلى من بلغ منهم العشق منتهاه حتى دفع بعضهم إلى قتل نفسه أو قتل محبوبه أو إلى الزنا أو إلى الكفر والعياذ بالله وغير ذلك من كبائر الذنوب وفواحش الأفعال، والعاقل من وعظ بغيره، ومن لم تنفعه أذنه لم تنفعه عيناه، فكيف ترضى يا مطلق بصره أن تسلك طريقاً هذا آخره وأن تغرس غرساً هذا ثمرته؟ فإن لم تفق من سكرتك بعد هذا الكلام فزن نفسك بميزان دقيق صنعه ابن القيم عساك تتوب وتئوب وتعرف قدرك عند علام الغيوب قال رحمه الله: " من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان، فينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شغل يشغله".(٢)

كلماتنا واضحة ومعانيها أوضح، لكن ارتداء نظارة الأهواء أضعف أبصار العشاق وأعمى بصيرتهم فإن خلعوها رشدوا ورأوا الطريق واضحاً فسلكوه.

النظرة ولاّدة:
تأمل هذه السلسلة:

_____

(١) ذم الهوى ص ٢٤٤، ٢٤٥
(٢) الفرائد ص ٦٨

النظرة تولد الخطرة، والخطرة تولد الفكرة، والفكرة تولد الشهوة، والشهوة تولد الإرادة، والإرادة تولد العزيمة، فإذا قويت العزيمة وقع المحظور وسقطت في المعصية.
كل الحوادث مبداها من النظر ... ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها ... ... كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه ... ... في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته ... ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

فإذا عرضت لك نظرة لا تحل فاعلم أنها سهم مسموم من سهام إبليس وجهه إلى قلبك وأراد بها قلبك، فتترس منها بدرع (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) حتى تكون من الذين عافاهم الله (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء).
أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟

فإن النظرة إلى ما لا يحل تشغل فكراً في الحرام لو كان تفكراً في ملكوت السماوات والأرض لكان من أفضل العبادات ولأثمر زيادة تقىً وعلو يقين وارتفاع درجات.

وهي تورث حزناً على فوات لذة محرمة لو كانت حزناً على أحوال المسلمين وعروقهم النازفة في أرجاء الأرض لكان علامة إيمان ودلالة على متانة الرابطة وصدق عقد : (إنما المؤمنون إخوة).
وهي تصرف وقتاً في إثم ومعصية يورثان النار، ولو صرف هذا الوقت في طاعة الله لأورث الفوز بالجنة ولذة النظر إلى وجه الله الكريم.

وهي تسيل مدامع حزناً على فراق حبيب القلب، ولو كانت سيالة من خشية الله لنعم صاحبها بظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

وهي تستهلك أقداماً وأكفاً في لقاءات عبث ومواعيد هوى، ولو سعت هذه الأقدام في خدمة الله وشغلت هذه الأكف في خط تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم لاستحق صاحبها مكافأة نهاية الخدمة ومجاورة صاحب التعاليم في جنات النعيم.

فأصغ بقلبك يا أخي إلى هذا الكلام المضمخ بعبير الهدى: "عندك بضائع نفيسة: دموع ودماء وأنفاس وحركات وكلمات ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قدر له، أيصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو تتنفس أسفاً على ما يفنى؟ أو تبذل مهجة لصورة عما قليل ستمحى؟" (١).

النظرة ذنب :
وقت المبارزة القاعدة : كل خطأ يكون مدعاة للقتل
إن العيون التي في طرفها حور ... ... قَتَلْنَنَا ثم لا يحيين قتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللب حتى لا حراك به ... ... وهن أضعف خلق الله أركانا
شخص أعراض المرض الذي أدى إلى موت القلب الطبيب الشرعي المؤمن ابن قيم الجوزية فكتب في تقريره معدداً آثار الذنوب:

"قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة"(٢)

وفوق هذه الأعراض تبقى كراهة اللقاء وخشية الحساب وخوف العقاب لهذا اسمعها عالية من ابن الجوزي لعلك لا تسمعها من غيره:
"إياك والذنوب فلو لم يكن فيها إلا كراهة اللقاء كفى عقوبة، أطيب الأشياء عند يعقوب رؤية يوسف، وأصعبها عند اخوته لقاؤه" (٣)
واسأل نفسك بعدها يا صاحب النظرات الآثمة: أي تركة ورثت : تركة يعقوب أم تركة أبنائه؟؟

تسهيلات المشروع:
اعقد مقارنة:
قال أبو عصمة: كنت عند ذي النون وبين يديه فتى حسن يملي عليه فمرت امرأة ذات حسن وجمال وخلق فجعل الفتى يسارق النظر إليها ففطن ذو النون فلوى عنق الفتى وأنشأ يقول:

_____
(١) المدهش ص ٤٧٥، ٤٧٦
(٢) الفوائد ص ٤٧
(٣) اللطائف ص ٦٢ – ابن الجوزي – ط. دار الهجرة.

دع المصوغات من ماء ومن طين ... ... واشغل هواك بحور خُرَّدٍ عينِ

فمن شغله اليوم التطلع إلى الغيد الحسان فليعقد مقارنة بينهن و بين الحور لتعلم الفرق بين هذه وتلك الحور وما الحور: تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من ثناياها إذا ابتسمت، لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض ريحاً، ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولما نامت عن النظر إليها عين، ولطمست ضوء الشمس كما يطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن من على ظهرها بالله الحي القيوم،نصيفها (خمارها) الذي يخفي جمالها خير من الدنيا وما فيها فكيف جمالها؟ بياض لحمها يسطع من وراء سبعين حلة من فوقها فكيف ضياؤها؟ لولا أن الله كتب على أهل الجنة أن لا يموتوا لماتوا من فرط حسنها وجمالها، فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها!! وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت هذه الشمس متنقلة في بروج أفلاكها. كل هذا وأنت مشغول بالجيف !!
يا من وقع العقد: نظران لا يجتمعان من غض طرفه اليوم عن الطين أطلقه غداً في الحور العين، ومن أطلقه اليوم حرمه غداً فاختر لنفسك، وقدم – إن شئت – المهر الذي أرشدك إليه أبو الدرداء رضي الله عنه فقال: " من غض بصره عن النظر الحرام زوج من الحور العين حيث أحب" (١)
اسلك طريقهم:
تنسم شذى عبير السلف، وارو عطشك بسيرتهم، وأحْيِ قلبك بذكرهم، وقلدهم وضاهم عسى أن تشبه الصورة الأصل.
كان الربيع بن خثيم – أنجب تلامدة عبد الله بن مسعود – يغض بصره فمر به نسوة فأطرق حتى ظن النسوة أنه أعمى فتعوذن بالله من العمى.وحين خرج حسان بن أبي سنان إلى العيد قيل له لما رجع: ما رأينا عيداً أكثر نساءً منه، فقال: ما تلقتني امرأة حتى رجعت.

(١) رسالة المسترشدين ص ١١٩ – الحارث المحاسبي – ط. دار السلام.

ولما طلب بعض أمراء البصرة داود بن عبد الله لجأ إلى رجل من أصحابه فأنزله منزله، وكانت له امرأة يقال لها: زرقاء – وكانت جميلة – فخرج الرجل في حاجته وأوصاها أن تلطف به وتخدمه، فلما قدم الرجل قال كيف رأيت الزرقاء وكيف كان تلطفها بك؟ قال: من الزرقاء؟ قال: أم منزلك. قال: ما أدري أزرقاء هي أم كحلاء !! فلما رآها زوجها قال لها: أوصيتك أن تلطفيه وتخدميه فلم تفعلي. قالت: أوصيتني برجل أعمى والله ما رفع طرفه إليّ (١)
وأمثال هؤلاء هم الأنقياء نقاوة الماء الزلال، الأمناء على الأعراض والحرمات والأموال.
وصف بعضهم حاله فقال:
ما ضُر لي جار أجاوره ... ... أن لا يكون لبابه ستر
أعمى إذا ما جارتي خرجت ... ... حتى يواري جارتي الخدر
وتصم عما بينهم أذني ... ... حتى يصير كأنه وقر

شغل بالحق وإلا فالباطل:
النفس لا تمل السعي والحركة والطلب والعمل، إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، إن لم تحلق بها في معالي الأمور انحدرت بك إلى سفسافها، إن فاتها قطار الجد ركبت قطار الكسل، لا بد لها من وثاق إن شددته عليها تأدبت بآداب الشرع، وإن حللته عنها راغت منك روغان الثعالب، فاختر لنفسك شغلاً وحدد لذهنك هماً واطلب لجسمك كداً.
من أجل ذلك كره عمر بن الخطاب الفراغ باعتباره مزلة إلى المذلة وهاوية إلى الهوى قال رحمه الله : "إني لأكره أن أرى أحدكم سبهلَلاً- أي فارغاً- لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة". (٢)

(١) ذم الهوى ص ٧٧.
(٢) قيمة الزمن عند المسلمين د. عبد الفتاح أبو غدة ، ص ٦٨ ط. دار القلم.

ويشرح ابن القيم ويحلل النفس البشرية تحليلاً عميقاً فيقول: وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة، لاتسكن ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حب طحنته، وإن وضع فهيا تراب أو حصى طحنته، فالأفكار التي تجول في النفس في منزلة الحب الذي يوضع في الرحي، ولا تبقى هذه الرحى معطلة قط بل لا بد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحنه" (١)

فالملك يلقي في الرحى بالحب النافع، والشيطان يلقى فيها التراب والحصى، وهو لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجدت الرحى فارغة من الحب وقيمها قد أهملها وأعرض عنها فحينئذ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها (٢)

خوف يطفئ الشهوة:
اضطرام نار الشهوة في القلب لا يخمده غير ماء الخوف. إذا علا منسوب الخوف أخمد نار الشهوة فكان غض البصر، وإن قل ازدادت اضطراماً وكان إطلاق البصر، فوجب على العاقل التنبه والنظر

من أين جاء العجز فيستدركه قبل أن يعم الحريق القلب وتشم منه رائحة الشواء. قال تعالى: "ولمن خاف مقام ربه جنتان" }الرحمن ٤٦{ قال مجاهد: "هو الذي إذا هم بمعصية ذكر مقام الله عليه فيها فانتهى" (٣).
والخوف من الله هو ثمرة طاعات عديدة: ككثرة تلاوة القرآن، وتدبر معانيه، ومطالعة أخبار القيامة وأهوال النار وأحوال أهلها، ومصاحبة الخائفين وسماع أخبارهم، ومعرفة أحوال المغترين واجتنابهم، وتغسيل الموتى وحضور الجنائز وشهود حالات الاحتضار، واستحقار طاعتك في عينك، ومعرفة قدر الله ومقامه، والتفكر في جبروته وأسمائه وصفاته وغيرها من مولدات الخوف وباعثات القلق.
أكثر من الصيام:

_____
(١) الفوائد ص ٦٦.
(٢) السابق ص ٢٢٨،٢٢٩.
(٣) ذم الهوى ص ١٩٢.

أصل الشهوات واحد كما أن أصل الصبر واحد، فمن صبر عن شهوة الطعام قويت إرادته واستطاع الصبر عن شهوة النظر إلى الحرام، ولهذا جاءت الوصية بالصيام لتدرب الصائم على أن يمتنع باختياره عن شهواته ولذته الحيوانية، ويصر على امتناعه فلا يتغير ولا يتحول، ولا تعدو عليه عوادي الغريزة أو نوازع الرغبة فيكون غض البصر نتيجة طبيعية لهذا وثمرة تلقائية له لذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم من لم يستطع الزواج: "فعليه بالصوم فإنه له وجاء". (١)
اعرف كيد عدوك:
للشيطان مع القلب صولات وجولات وغزوات وغارات ومن سياساته التدرج حتى يصل إلى هدفه ويضمك إلى حزبه ويجعلك من جنده، فإذا كان مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة فهذه الخطوة هنا هي النظرة.
قال ابن الجوزي: "إذا رأيت فرساً قد مالت براكبها إلى درب ضيق قد خلت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن النزول فيه فصِيحَ به: ارجعها عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن قبل وردها خطوة إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانى حتى ولجت ثم قام بجذبها بذنبها طال تعبه وربما لم يتهيأ له.
وكذلك النظرة إذا نزلت في القلب، فإن عجل الحازم بغضها وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر نقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرغ فنقشها فيه، فكما تواصلت النظرات كانت كالمياه تروي بها الشجرة فلا تزال تتمنى فيفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به ويخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى في التلف". (٢)
فليتزوج:
قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج". (٣)

_____
(١) رواه الشيخان عن ابن مسعود كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٨٨٤.
(٢) ذم الهوى ص ٨٢.
(٣) سبق تخريجه.

بل قدم النبي صلى الله عليه وسلم دواء ناجحاً يشفي من أثر النظرة الحرام، فعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة، فأتى زينب وهو تمعس منيئة لها فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه فقال: "إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه" (١)
قال الإمام النووي: "إنما فعل هذا بياناً لهم وإرشاداً لما ينبغي لهم أن يفعلوه فعلمهم بفعله وقوله" (٢)

وربما هيجت نظرة شهوة رجل، ولا تسكن هذه الشهوة إلا بتنفيذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وإتيان أهله، ولهذا جاء الوعيد شديداً لمن امتنعت عن فراش زوجها بغير عذر. قال صلى الله عليه وسلم : "إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع". (٣)
الله مطلع عليك:
قال تعالى: "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"
قال ابن عباس: "الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، فإن رأى منهم غفلة نظر إليها، فإن خاف أن يفطنوا إليه غض بصره، وقد اطلع الله عز وجل من قلبه انه يود أنه نظر إلى عورتها". (٤)
يخدع المسكين نفسه ويظن أنه يخدع ربه، مراقبتك لله يا أخانا تتمثل في استشعار أن نظر الله أقرب إليك من نظرك إلى الحرام لأنه أقرب إليك من حبل الوريد، وملائكته تقف عليك عن اليمن وعن الشمال، فالأعمال تسجل والنظرات ترصد والخطرات تكتب بل تنقش (وما كان ربك نسياً) {مريم ٦٤}

_____
(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود عن جابر كما في ص ج ص رقم ١٩٤٠ والسلسلة الصحيحة رقم ٢٣٥، وتمعس أي تدلك، منيئة: الجلد أول ما يوضع في الدباغ.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣١١/٥) – ط. دار أبي حيان.
(٣) رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٩١٢.
(٤) ذم الهوى ص ٨١.

كان لابنة عمر بن عبد العزيز لؤلؤة واحدة تستخدمها كقرط فى أذنها ، وتنقصها لؤلؤة أخرى تضعها فى أذنها الأخرى فأرسلت إليه أن يعطيها لؤلؤة أخرى ، فأرسل إليها بجمرتين ثم قال لها : " إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت إليك بأخت لها "(١).
ونحن نرث مذهب الراشد الخامس ونقول لك يا مطلق بصره : لو استطعت أن تجعل مكان عينيك جمرتين فابعهما فى الغيد الحسان.
عند التسليم
سئل الحارث المحاسبي: إذا الرجل التائب عاد إلى النظر المحرم بعد أن تاب منه فهل تصح توبته؟؟ أم أنها توبة كاذبة فأجاب قائلاً:
"ينقسم الناس في ذلك إلى قسمين:
صادق في توبته الأولى لم يصر على ذنبه، وليس في نيته العود إليه عند التوبه، ثم عرض له فيما بعد ذلك ذنب آخر دون إعداد ولا ترتيب له، ولا علم بوقوعه فارتكبه، سواء كان ذلك الذنب هو الأول أو غيره من الذنوب، وحينئذ يجب على المذنب أن يسارع بالتوبة لشروطها وصحت توبته الأولى والثانية مهما تكرر منه الذنب بشرط عدم الإصرار وعدم التفكير والترتيب لارتكابه.
تائب من ذنبه الأول على حب له، وتمن لمقارفته مرة أخرى، لم يقتلع حب المحرم من قلبه، ثم عرض له الذنب فارتكبه، فهذا مستهزئ بربه، وتسمى توبته توبة الكذابين لأنه يتوب بلسانه على نية العودة إلى الذنب بقلبه". (٢)

مشروع ٢:
الصلاة خير من النوم
وقفة إيمانية
كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يطيقون فراقه، ولما كانت الدنيا دار فراق، وهم لا يشبعهم منه غير الخلود طلبوا صحبته في دار الخلود، وقدموا الثمن .. الصديق قدم صدقه، والفاروق قدم عدله، وذو النورين قدم ماله، وعليّ قدم روحه يوم هجرة الحبيب. هذا ما قدموا فأين ما قدمت؟
قبل التنفيذ:
أعجب العجاب:
يقول ابن القيم رحمه الله:

_____

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٥٦.
(٢) التوبة ص ٥٩ الحارث المحاسبي – ط. دار الكتب.

"من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن إجابته، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حد دينه والحديث عنه، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب" (١).

أرباح المشروع:
ياقومنا هذي الفوائد جمة ... ... فتخيروا قبل الندامة وانتهوا
إن مسكم ظمأ يقول نذيركم ... ... لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا
من فوائد أداء صلاة الفجر في جماعة

تعدل قيام ليلة كاملة :
يقظة من منام + إجابة للأذان + صلاة مع أهل الإيمان = ثواب قيام ليلة وما أعظمه من ثواب مع يسر ما بذل فيه من جهد.
قال صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف ليلة، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله". (٢) وهي وصية العامة إذ قالوا: عليكم بما خف حمله وغلا ثمنه.
الحفظ في ذمة الله:

قال صلى الله عليه وسلم "من صلى الصبح فهو في ذمة الله". (٣)
وتأمل معي قوله "ذمة الله" فهي ليست ذمة ملك من ملوك الأرض فهو وإن علا ملكه وتوقفت مراكب السير تعظيماً وتبجيلاً له لا تزال فيه حقارة الأرض وذلة الأرض والضعف الكائن في المخلوق من تراب الأرض، وإنما هي ذمة مالك الملك ورب الأرباب وخالق الأرض وما عليها لك والواصف نفسه قائلاً: "والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة".

_____
(١) الفوائد : ٦١
(٢) رواه أحمد ومسلم عن عثمان بن عفان كما في مختص صحيح مسلم رقم ٣٢٤
(٣) رواه مسلم عن جندب بن عبد الله واللفظ له وأبو داود والترمذي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٦٣

ذمة الله هي الذمة التي لا يستطيع أحد خرقها بل مسّها، تحيط المؤمن بسياج من الحماية له في نفسه وولده وعقله ودينه وسائر أمره فيحس بالطمأنينة في كنف الله، ويشعر أن عين الله ترعاه وأن قوته تحفظه، فيمضي يومه واثق الخطى ثابت الجنان عديم الوجل من كل من دب على وجه الأرض وخلق منها.
نور يوم القيامة:
قال النبي صلى الله عليه وسلم : "بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة". (١) والنور على قدر الظلمة، فمن كثر سيره في ظلام الليل إلى الصلاة عظم نوره وعم ضياؤه يوم القيامة، والمؤمن يعلم أن مقاساة الظلمة هنا هي ثمن النور هناك، وأن سيره في ظلمة الليل إلى

المساجد إنما يدخر الأنوار ليوم تضيء له فيه الصراط فيعبره إلى الجنة.
وليست أنوار المؤمنين يوم القيامة على درجة واحدة من الشدة والقوة بل تتفاوت بتفاوت الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم : "فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطي نوره دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطي نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفئ مرة". (٢)
دخول الجنة:
قال صلى الله عليه وسلم : "من صلى البردين دخل الجنة" (٣).
والبردان هما صلاة الفجر والعصر. قال ابن حجر في الفتح : "وسميا بالبردين لأنهما تصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطلب الهواء وتذهب سورة الحر أي شدته" (٤)

_____
(١) رواه ابن ماجة وابن خزيمة في صحيحه والحاكم واللفظ له كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٤٢٣
(٢) رواه الحاكم عن ابن مسعود وأورده الألباني في شرح الطحاوية ص ٤٦٩ ط. المكتب الإسلامي
(٣) رواه مسلم عن أبي موسى كما في ص ج ص رقم ٦٣٣٧
(٤) فتح الباري ٦٤١٢ – ابن حجر العسقلاني – ط. دار الريان

ولأن النفس تخلد في هذين الوقتين للراحة والرقاد وتستصعب النشاط والقيام فقد استحثها النبي صلى الله عليه وسلم وحفزها بهذه البشارة العظيمة وكأنه يقول: هذه الجنة نزلت إلى أرضكم تعرض نفسها عليكم في هذين الوقتين الثمينين، فاحضروا القسمة يكن لكم فيها نصيب، وارموا ساعة القتال بسهم يكن لكم في الغنيمة سهم، ولا تكونوا مع الخوالف فتنالكم التوالف، ولا ممن :
يحاول نيل المجد والسيف مغمد ويأمل ادراك العلى وهو نائم
تقرير مشرف:
أخي الحبيب: أنت على موعد مع الله كل يوم في صلاة الفجر والعصر لتقدم له تقريراً يومياً تكتبه بيدك شاهداً به على نفسك، مجدداً العهد مع ربك الذي يحرص كل يوم على السؤال عنك وتفقد أحوالك عن طريق ملائكة أطهار – وهو أعلم بك منهم – لكنه يسأل براً ولطفاً وإحساناً وتقرباً.
قال صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون.(١)
هذا ثواب النافلة فكيف بالفريضة:
قال صلى الله عليه وسلم : "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها"(٢).
وهما ركعتا سنة الفجر، ولما كان الفرض أحب ما تقرب به العبد إلى ربه فثوابه أعظم وربحه أوفر، وإذا قال "خير من الدنيا وما فيها" فكن على يقين أن قوله الحق، لا يبالغ في تصوير، ولا ينطق عن هوى، تنزه عن ذلك كيف وما هو إلا وحي يوحى؟؟ ويد الله ملأى، وخزائنه لا تنفد، وملكه لا ينقصه شيء إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع؟!
رؤية الله في الآخرة :

_____
(١) رواه الشيخان عن كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٤٦٣.
(٢) رواه مسلم وأحمد.

وما أعطى الله أهل الجنة نعيماً أحب إليهم من النظر إلى وجهه الكريم، وهو شرف أجل من أن يخطر ببال أو يدور في خيال فأي نعيم وأي لذة وأي فوز وأي قرة عين، والله ما طابت الجنة إلا بهذا ولا تم نعيمها إلا به.
هذا الشرف حازه أهل الفجر كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم :"أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قال:" فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها" (١). قال ابن حجر:"وجه مناسبة ذكر هاتين الصفتين عند ذكر الرؤية أن الصلاة أفضل الطاعات وقد ثبت لهاتين الصلاتين من

الفضل على غيرهما، فهما أفضل الصلوات فناسب أن يجازى المحافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى الله تعالى". (٢)
يا أخي.. نسوة مصر لما رأين يوسف (أكبرنه وقطعن أيديهن) ، وشغلن به عن أنفسهن، فكيف لا تحب مولاك وتشتاق إلى رؤيته ؟! وإن له يوماً يتجلى فيه لأوليائه ويطلع فيه على أحبائه.
زاد الدنيا والآخرة:
لما كان الوقت الذي يعقب صلاة الفجر أكثر الأوقات بركة فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على اغتنامه وشغله بالذكر، فكان يجلس بعد صلاة الفجر يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم يصلي ركعتين ويبشر أصحابه إن هم فعلوا هذا بأن لهم أجر حجة وعمرة تامة تامة، ولقد حرص السلف الصالح على التزام سنة النبي صلى الله عليه وسلم فكان ابن تيمية كما ينقل عنه تلميذه ابن القيم يذكر الله في هذا الوقت المبارك ويقول:"هذه غدوتي ولو لم أتغد الغذاء سقطت قوتي". (٣)

_____
(١) رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٣٦٨.
(٢) فتح الباري (٤٤/٢) بتصرف
(٣) الوابل الصيب من الكلام الطيب ص ٣٧ – ابن قيم الجوزية – ط. المكتبة السلفية

وهذا الوقت وقت البركة الوفيرة في الرزق ولهذا نجد أصحاب المهن والحرف والتجارة حريصين على اغتنام هذا الوقت، فعن صخر الغامدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم بارك لأمتي في بكورها" ، قال صخر: وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم أول النهار، وكان صخر تاجراً وكان إذا بعث تجارة بعثها أول النهار فأثري وكثر ماله. ولا يعني ذلك أن النائم لا يُرزق، بل إن الله يرزق البر والفاجر والمؤمن والكافر، لكن البركة كنز لا يناله إلا المستيقظون في هذا الوقت الذي يفيض بالبركة على أهله ... بركة في المال فلا فقر، وفي الصحة فلا مرض، وفي العزيمة فلا وهن، وفي الوقت فلا ضيق، وفي العقل فلا شطط وكذا في سائر نعم الله على العبد.
صحة وعافية:
الفوائد الصحية التي يجنيها الإنسان بيقظة الفجر فهي كثيرة منها:
تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون O3 في الجو عند الفجر، وتقل تدريجياً حتى تضمحل عند طلوع الشمس، ولهذا الغاز تأثير مفيد للجهاز العصبي ومنشط للعمل الفكري والعضلي.
نسبة الأشعة فوق البنفسجية U.V. تكون أعلى ما يمكن عند الفجر، وهذه الأشعة تحرض الجلد على صنع فيتامين (د)، كما أن للّون الأحمر تأثيراً باعثاً على اليقظة.
نسبة الكورتيزون تكون في الدم أعلى ما يمكن وقت الصباح وأقل ما يمكن وقت المساء.(١)
الشروط الجزائية
من أضرار التخلف عن صلاة الفجر مع الجماعة:
الاتصاف بصفات المنافقين:
قال تعالى في وصف المنافقين: " وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى" }الأنبياء ١٤٢{ وقال عليه الصلاة السلام:"ليس صلاة أثقل على المنافقين من صلاة العشاء والفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ".(٢)

_____
(١) نقلاً عن مجلة المجتمع الكويتية.
(٢) رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٣٨٣.

ويؤكد الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود فيقول:" ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، وما يزال الرجل بخير ويظن فيه الخير ما دام مواظباً على صلاة الفجر فإذا تخلف دارت حوله الظنون وحامت حوله الشبهات. قال ابن عمر: "كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظن".(١)
الويل والغي له:
قال تعالى: فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون" }الماعون ٤،٥{ قال سعد بن أبي وقاص: سهوا عنها حتى ضاع الوقت. وقال تعالى:"فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات

فسوف يلقون غيا" }مريم ٥٩{ قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: لم تكن إضاعتها تركها ولكن أضاعوا الوقت.
سوق الأرباح قائمة حتى الشروق فإذا طلعت الشمس انفضت السوق ولم تنفع البضائع صاحبها، وفوق هذا وذاك تهديد ووعيد بالغي والضلال من قوي عزيز ذي انتقام.
أذنه كنيف شيطان:
عن عبد الله بن مسعود قال: "ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح قال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه" أو قال: "في أذنه".(٢)
قال الطيبي: "خص الأذن بالذكر، وإن كانت العين أنسب للنوم إشارة إلى ثقل النوم".(٣)
وقد يتعجب الإنسان ويسأل: وهل يبول الشيطان؟ فيجيبه القرطبي قائلاً : "ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح فلا مانع من أن يبول".(٤)
وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشيطان قد استولى عليه، واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول ازدراءً له واستهزاءً به.
الخبث والكسل:
فيصبح النائم عن صلاة الفجر إسفنجي الطبع: إذا صادف خبيثاً تشرب خلاله الخبيثة وامتلأ بها، زجاجي القوام: إذا صادف آية مرت من خلاله دون أن يبقى منها فيها شيء، حجري الإحساس : تنهال عليه سياط المواعظ دون أن يشعر بأي ألم.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب رقم ٤١٤.
(٢) رواه الشيخان عن ابن مسعود كما في اللؤلؤ والمرجان.
(٣) فتح الباري (٥٣/٣).
(٤) السابق (٣٥/٣).

وهو مع ذلك لو كان الخمول والكسل عن الطاعات حديداً لكان هو قطعة مغناطيس، ولو كان الثواب منه على قيد أنملة لحسبها – من كسله – صحارى وقفاراً.
ولذا أخبر النبي أن الشيطان يعقد على قافية رأس أحدنا إذا هو نام ثلاث عقد لا تنحل إلا بالقيام والوضوء والصلاة (وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)(١) ليس هذا فحسب بل وتعلن فضيحته على الملأ وتفوح معصيته في الأرجاء وتتنكس من على رأسه أعلام العزة والكرامة ولترفع بدلاً منها أعلام الذل والهوان. قال أبو المعتمر سليمان بن طرحان التيمي: " إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته".(٢)
الكب على الوجه في النار:
قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فانظر يا ابن آدم لا يطلبنك من ذمته بشيء، فإن من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم".(٣)
صلاة الفجر من ذمة الله التي يغار عليها أن تخفر، فمن نام عنها أو أخّرها عن وقتها فقد خفر ذمة الله، واستعدى عليه العظيم، وأغضب منه الجليل فعاقبه بأن كب وجهه الذي غمره النوم في الدنيا في النار يوم القيامة جزاء ما قدمت يداه غير ظالم له أو متجن عليه حاشاه.
وتكسر رأسه:
لما ثبت في البخاري من أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في رؤيا (رجلاً مستلقياً على قفاه وآخر قائماً عليه بصخرة يهوي بها على رأسه، فيشدح رأسه فيتدحرج الحجر فإذا ذهب ليأخذه فلا يرجع حتى يعود رأسه كما كان، فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى، وقد فسر جبريل وميكائيل ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه (الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة). قال ابن العربي: جعلت العقوبة في رأس هذا النائم عن الصلاة والنوم موضعه الرأس.(٤)
ويمنع رزقه:

---

(١) جزء من حديث متفق عليه عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٤٤٤.
(٢) صفة الصفوة (١٧٤/٣).

(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن جندب البجلي كما في ص ج ص رقم ٦٣٣٩.
(٤) فتح الباري.

قال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد:
"ونومة الصبح تمنع الرزق لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة وهو مضر جداً، ورأى عبد الله بن عباس ابناً له نائماً نومة الصبح فقال : قم .. أتنام في الساعة التي تقسم فيها الأرزاق؟! (١)
تسهيلات المشروع:
نم مبكراً واترك السمر:
لحديث أبي برزة: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبالي بعض تأخيرها (يعني صلاة العشاء) ولا يحب النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها" وقد استثنى من ذلك حالات منها ما ذكره الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال: "سبب كراهة الحديث بعدها أن يؤدي إلى السهر، ويخاف من غلبة النوم عن قيام الليل أو عن صلاة الصبح في وقتها الجائز، أو في وقتها المختار أو الأفضل، والمكروه من الحديث بعد صلاة العشاء هو ما كان في الأمور التي لا مصلحة فيها، أما ما كان فيه مصلحة وخير فلا كراهة فيه، كمدارسة العلم وحكايات الصالحين، ومحادثة الضيف والعروس للتأنيس، ومحادثة الرجل أهله وأولاده للملاطفة والحاجة، ومحادثة المسافرين بحفظ متاعهم أو أنفسهم، والحديث في الإصلاح بين الناس، والشفاعة إليهم في خير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإرشاد إلى مصلحة أو ماشابه ذلك فكل ذلك لا كراهة فيه" (٢)
من أجل ذلك كان عمر بن الخطاب يضرب الناس بدرته بعد صلاة العشاء ويقول : "أسمر أول الليل ونوم آخره ؟".
الحرص على آداب النوم:
كالنوم على طهارة وأداء ركعتي الوضوء، والمحافظة على أذكار النوم، والاضطجاع على الشق الأيمن، ووضع الكف الأيمن تحت الوجه، وقراءة المعوذتين في الكفين ومسح ما استطاع من الجسد بهما وغير ذلك من أذكار النوم.
ابذر الخير تحصد الخير:

---

(١) زاد المعاد (٢٤٢/٤) – ابن قيم الجوزية – مؤسسة الرسالة.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٨/٣،١٥٧).

فمن نام عقب أداء طاعة من صلة رحم، أو بر والدين، أو إحسان إلى جار، أو صدقة سر، أو ستر مسلم، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو إرشاد ضال، أو شفقة على يتيم، أو سعي في حاجة محتاج لكوفئ بأن يكون ممن يشهدون الفجر لأن حسنة المؤمن تستوحش فتدعو أختها إلى جوارها تأبى التفرد.
انزع الشر تسلم:
وذلك بحفظ الجوارح عما لا يحل لها، فيصرف النظر عن الحرام وكذلك اللسان والسمع وسائر الأعضاء عما لا يحل لها. سئل الحسن البصري: لم لا نستطيع قيام الليل؟ فقال: "قيدتكم خطاياكم".(١)
فمن نام على معصية ارتكبها من غيبة مسلم، أو خوض في باطل، أو نظرة إلى حرام، أو خذلان محتاج، أو خلف وعد، أو أكل حرام، أو خيانة أمانة عوقب بالحرمان من شهود الفجر لأن من أساء في ليله عوقب في نهاره، ومن أساء في نهاره عوقب في ليله.
استعن بنوم القيلولة:
كان أبو ذر الغفاري يعتزل الصبيان لئلا يسمع أصواتهم فيقيل، فقيل له فقال: "إن نفسي مطيتي وإن لم أرفق بها لم تبلغني"(٢) وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم ينفذها أبو ذر كما علمه إياها المعلم

القدوة صلى الله عليه وسلم، فلا شك أن نوم القيلولة يريح الجسد من تعبه فيقوي الإنسان على الاستيقاظ على أذان الفجر إن لم يكن قبله.
إخوان الخير يساعدون:
فهؤلاء هم العدة والعتاد في مواجهة رسل النوم وبواعث الكسل بقيادة إبليس، أوصهم بأن يوقظوك وأن ينبهوك ويذكروك، واستعن على ذلك بشهود مجلسهم وحضور منتدياتهم، فمن عاشر قوماً أربعين يوماً صار منهم، فإن كان قلبك مريضاً شفي، وإن كان ميتاً حيي، وتذكر لما بعث الله أهل الكهف بعث كلبهم ولما أحيا عزيراً أحيا حماره.
اعرف قدر الآخرة:

_____
(١) لطائف المعارف ص ١٠٧ – ابن رجب الحنبلي ط. مؤسسة الأهرام.
(٢) الزهد ص ٣١٢ – ابن المبارك ط. ابن خلدون.

لو قيل لك: احضر إلى مكان كذا في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فإنه سوف يأتيك من يسلمك عشرة آلاف جنيه. ترى ماذا كنت فاعلاً؟ لا شك أنه لن تغفل لك عين ولن يطيب لك نوم، بل ستظل تتقلب على جمر الشوق وتتقلى في نار القلق وستظل تعد الساعات بل الدقائق والثواني كأنها الدهر قدامك، ولذهبت قبل الموعد بساعة تنتظر بلهفة حضور الجنيهات.
ويحك: عشرة آلاف جنيه أم الجنة؟! ثواب الدنيا أم الآخرة؟! لذة ساعة أم نعيم الأبد؟! لو عرفت قدر الآخرة حقاً لأفاق قلبك المخمور، ولو تذكرت ما علمه إياك مدرس الحساب وأنت صغير لكان حالك غير حالك. علّمك أن البسط/(مالا نهاية) = صفر، فالدنيا مهما عظم قدرها وعلا شأنها هي البسط والآخرة هي المقام، وما الدنيا إلى الآخرة إلا صفر مهمل وسراب خادع ووهم كبير، فحصّل ما استطعت في المقام ليطيب لك في الجنة المقام، ولا تطلب البسط كل البسط فإنه سبحانه وتعالى قال لك : (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً)
انتقم من عدوك:
فإذا فاتك شهود الفجر فانتقم من شيطانك انتقاماً يؤلمه فيحذرك ويخاف الاقتراب منك بعد أن كان يعدك من قبل لتكون ذباب طمع وفراش نار، وخطة الانتقام تتمثل في صيام هذا اليوم الذي ضيّع عليك صلاة الفجر فيه، أو قراءة جزء من القرآن زائداً عن وردك، أو أداء أي عبادة مما تجد فيها النفس مشقة وتعباً، وكلما عظمت المشقة زاد الشيطان فرقاً، فقابل كل ضربة منه بضربة، وكل غفلة بيقظة، وكل سقطة بنهضة، تنج من كيده وتسلم من أذاه، وإياك إياك والمداهنة فإنها دليل الذل وعلامة الجبن وبداية الهزيمة.

هي وصية أمين الأمة أبي عبيدة التي يبث لك فيها الأمل مهما طوقتك ذنوبك وحاصرتك آثامك يقول رضي الله عنه: "ادرؤوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة أدلت فوق سيئاته حتى تقهرهن".(١)
كما هي وصية عبد الله بن عمر الذي كان يؤثر النصيحة بالحال على النصيحة بالمقال، فكان رضي الله عنه إذا فاتته صلاة جماعة صلى تطوعاً إلى الصلاة الأخرى إرغاماً للشيطان وتأديباً له ونكاية فيه.(٢)
المح عاقبة الصبر:
من عرف حلاوة الأجر هانت عليه مرارة الصبر، والعاقل الفطن له في كل ما يرى حوله عبرة، فهو يرى أنه ما ابيض وجه رغيف حتى اسود وجه خبازه، وما علت اللآلئ الأعناق إلا بمعاناة الغوص في الأعماق، من سهر الليالي بلغ المعالي، ومن استأنس بالرقاد استوحش يوم الرقاد، لا يحل لحم الغزال دون ذبحه، ولا يطيب إلا بأن يصلى النار، إضاءة الشمعة إفناء نفسها، وكلما طال سفر القافلة عظم ربحها، وكلما كانت السلعة غالية رامت هما عالية. صاح بهذا أستاذ الصبر الأول فقال صلى

الله عليه وسلم "ألا إن سلعة الله غالية. ألا إن سلعة الله الجنة" (٣)
فتذكر هذا تفق على صوت الديك وإلا فقد سبقتك الديوك
قم بنا يا أخي لما نتمنى ... ... واطرد النوم بالعزيمة عنا
قم فقد صاحت الديوك ونادت ... لا تكون الديوك أطرب منا
أخي المشترك :
عند التسليم
اقرأ هذه السطور وأسقط معانيها على مشروعك الذي وقعت عليه لتوك
يقول صاحب الإحياء:

_____
(١) حلية الأولياء (١٥٢/١) – أبو نعيم الأصفهاني – ط. دار الكتب العلمية.
(٢) حياة الصحابة (١٢٣/٣).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية والحاكم والعقيلي في الضعفاء عن أبي كما في ص ج ص رقم ٦٢٢٢.

"اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها فإن العفو أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خير الأعمال أدومها وإن قل"
والأشياء تتميز بأضدادها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إن دام عظم تأثيره في إظلام القلب (١)
استراحة:
" وإن لكم في الأنعام لعبرة ... "
غلا ثمن الراحلة لما صابرت طول السفر وقلة الزاد، فاستحقت أن تكرم وتزين وتظل حياتها عزيزة حتى يتوفاها الموت، أما غيرها من الإبل فأرخصها نفاد صبرها وضعف تحملها، لذا تأكل لتؤكل وتكرم لتذبح، وغاية إكرامها: إخفاء السكين عنها ساعة الذبح.
إذا فرغ التمساح من طعامه فغر فاه واسعاً ليسمح لعصفور صغير بالتقاط بقايا الطعام من بين أسنانه خشية أن ينخر فيها السوس، وبعض الناس ينخر فيه السوس منذ زمن دون أن يسمح لأحد بالتقاط أصل الداء منه، لا التمساح شابه ولا العصفور قلد .. أخي إن لم تكن فاعلاً فمتفاعلاً .. إن لم تدبّج خطبة فاحضرها .. إن لم تلق درساً فاشهده .. إن لم تكن أهلاً لإصلاح غيرك فلا تمانع في أن يقوم غيرك بإصلاحك.
الحمام الزاجل إذا أطلقه صاحبه في توصيل رسالة كابد قرص الشمس، وواصل الليل والنهار محتملاً ما يقابله من رياح وأمطار ورعد وبرق، وحلق عالياً خشية أن تناله سهام الصياد، وهو مع هذا يحذر النزول على حبة قمح ملقاة خوفاً من خديعة فخ تورث عرقلة سير أو كسر جناح فتضيع الرسالة، فإذا أوصل الرسالة أطلق لجناحيه العنان في البرج يأكل ما يشاء.

_____
(١) إحياء علوم الدين (٣٤/٤)

فيا حاملي رسائل القرب إلى الله: ماذا كابدتم؟ وإلى أي علو منه سموتم؟ وأي فخ عرقل تقدمكم؟ ويحكم غمسة في الجنة تنسي آلام العمر، ولحظة واحدة فيها خير من الدنيا وما فيها فلم التردد؟
القط إذا أحسنت إليه مرة جعل كلما رآك لاطفك وتمسح بثيابك، وأنت كل ذرة من بدنك تشهد بإحساننا، وكل شعرة من جسدك مغمورة بنعمنا، ومع هذا كله كلما رغّبناك فينا رغبت عنا، وكلما أدنيناك منا أحببت غيرنا، وكلما واصلناك جافيتنا، خاصمتنا وأنت أحوج ما تكون إلينا، وصالحناك

ونحن أغنى ما نكون عنك، هلا تعلمت من البهائم ياذا القلب الهائم، ولا تستعظمن قدرك فقد تعلم قابيل كيف يدفن أخاه من غراب، وعلم سليمان خبر بلقيس من هدهد.
النمل مع صغر حجمه وضعف قوته يحمل أضعاف أضعاف وزنه صيفاً ليقتات عليها شتاء دون أن تشغله حلاوة زاد الصيف عن جمع زاد الشتاء لعلمه بضراوة الجوع فيه، ولكونه أخذ العبرة من كثرة الهالكين فيه .. يا أخي افهم .. الدنيا صيف والآخرة شتاء وقليل من الاعتبار يرحمك الله.
الجلالة هي كل ما يؤكل لحمه من دواب الأرض تأكل النجس من الطعام حتى يخبث لحمها، وقد حرم الفقهاء أكلها حتى تحبس أربعين يوماً تأكل فيها طيب الطعام فتطيب وتحل للأكل. وكثير من الناس غرق في الحرام ففسد حاله وخبث لحمه، وما أحوج هؤلاء إلى حبس كحبس الجلالة لا يتناولون فيه سوى أطايب الكلام وصالح الأعمال إلى أن تزكوا أرواحهم وتطيب نفوسهم فيستحقون بذلك دخول الجنة التي لا يدخلها إلا (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)، وعندها تطرب أسماعهم بسماع النشيد الملائكي الخالد : (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين).
بعض الناس بهيمة في مسلاخ بشر.. حيوان في صورة إنسان
فمنهم حمار يدور برحاه دون أن يتقدم إلى الأمام خطوة، طلّق أخراه وتزوج دنياه، جلبة بالنهار خشبة بالليل، سبحان من رفع البهائم فوقه درجة إذ تنفع غيرها وهو لا ينفع نفسه ولا غيره، ألم أقل لك (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل).

ومنهم دودة قز يموت وسط ما ينسج، الألفة بينه وبين شهواته عجيبة، والمؤاخاة بينه وبين شيطانه حميمة، يسعى لحتفه بيده،ويسير إلى النار في خطى ثابتة، شعارهم في الحياة: (يهلكون أنفسهم)
ومنهم نعامة يدفن رأسه في الرمال، يظن أن أحداً لا يرى فسقه ولايلمح فجوره، يزعم أنه لم يقتل ودماء الضحية تلطخ يديه، ويدعي عدم السرقة وبصماته تملأ موقع الجريمة، يرتدي ثوب التقى وقطرات الخمر تقطر من فمه، وأمثال هؤلاء: (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)
ومنهم حرباء في تلونها يدخل مجلس الصالحين فيخشع لسماع الأعراف وهود، ويثني على مجالس الطالحين فيطرب لسماع الجيتار والعود، حرموا من المعية لأن نفوسهم إمّعية وعقولهم غير ألمعية طريقتهم في الحياة: (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)
ومنهم خفاش في هيئته المقلوبة، يعشق الظلام ويكره النور، يستلذ بالمعصية ويستقبح الطاعة، مفاهيمه معكوسة لأن فطرته منكوسة لذا: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) الآية ٤٥ الزمر.
مشروع ٣
صل صلاة مودع
وقفة إيمانية
ياساهياً في صلاته: جسمك في مصر وقلبك هائم في كل مصر، صورة بلا روح .. جسد بلا حياة .. عربي النطق أعجمي الفهم، مثلك مثل من طلب منه الملك جوهرة ثمينة لقاء قربه وجعله في الحاشية فاشترى حفنة تراب، ووضعها في سلة قش وقدّمها، فلما رآها الملك غضب وكان الطرد والإبعاد بديل القرب والإسعاد.
قبل التنفيذ
مراتب خمس
قال الإمام ابن قيم الجوزية:

"والناس في الصلاة على مراتب خمس: (أحدها) مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها. (الثاني) من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار. (الثالث) من حافظ

على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار. فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد. (الرابع) من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها. قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها. (الخامس) من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل ناظراً بقلبه إليه مراقباً له ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين الغافل في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به. فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه(١)

أرباح المشروع:

التلذذ بالصلاة:

الخاشع يلتذ بصلاته ويستأنس بمناجاته فسرعان ما تنقضي دون أن يشعر لأن (سَنة الوصل سِنة) فإن أصابته نزلة فتور فهجر الخشوع هجره الخشوع لتمر عليه أيام الهجر كأنها أعوام لأن (سِنة الهجر سَنة)

_____

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٢١

يخفف الخشوع أمر الصلاة على العبد. قال تعالى:"وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين" }البقرة ٤٥{ بل يجعل الصلاة لذة فائقة ومتعة غامرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وجعلت قرة عيني في الصلاة" (١) فبالمعاني التي يحييها الخشوع في القلب يعود المسجد قطعة من الجنة مختبئة بين أربعة جدران ولا أروع، فما ثم إلا السرور والنعيم وقرة العين.

كانت هذه اللذة عند عروة بن الزبير بحراً غرقت فيه سفن الألم فلم تقترب من شاطئ الجسد ولم تصل إلى عالم الوجدان فكيف كان ذلك؟!

وقعت الأكلة في رجله فأشاروا عليه بقطعها لا تفسد جسده كله، فأشار عليهم بقطعها في الصلاة وخرج بخشوعه من دنيا البشر إلى لذة القرب من الله، فقطعوا كعبة بالسكين دون أن يلتفت، حتى بلغوا عظمه فوضعوا عليه المنشار ونشروها وهو لا يلتفت، ثم جيء بالزيت المغلي فغمرت به فغشي عليه ساعة ثم أفاق وهو يقول: هل انتهيتم ؟!

أرحنا بها يا بلال:

_____

(١) رواه أحمد والنسائي عن أنس كما في ص ج ص رقم ٣١٢٤

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وإذا أعياه أذى الناس وصدودهم وبطشهم وكيدهم نادى في بلال: "أرحنا بها يا بلال" (١) ولا تنبعث هذه الراحة من حركات مصطنعة تتخللها كلمات لا تجاوز الحناجر، إنما الراحة حكر على من تدبر آيات الله وعاش في معانيها، فانتشلته من همومه وأحزانه إلى تسليمه وإيمانه، ونقلته من عالم الألم إلى عالم الأجر، ومن ضيق الدنيا وكدرها إلى سعة الآخرة وصفائها. . الصلاة الخاشعة هي اللمسة الحانية التي يختفي معها التعب في غمرات السكينة الإيمانية وعرصات الروحانية العالية .. هي البلسم الشافي لقلق النفس وضعفها، فإذا بها تطمئن بعد قلق إذ بذكر الله تطمئن القلوب، وتسكن بعد اضطراب إذ تتصل بباعث السكينة في نفوس المؤمنين، وتأمن بعد فزع إذ تركن إلى من رزقها وأجلها بيده وحده، وتقر بعد خوف إذ لن يصيبها إلا ما كتب الله لها.

الأجر على قدر الخشوع:

يتناسب الأجر الذي يناله المرء عن صلاته تناسباً طردياً مع قدر خشوعه فيها: قال صلى الله عليه

وسلم: "إن الرجل لينصرف وما يكتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها" (٢) ولذا قرر ابن عباس هذه الحقيقة فقال: "ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها" (٣)

مغفرة الذنوب:

(١) رواه أحمد وأبو داود عن رجل من خزاعة كما في ص ج ص رقم ٧٦٦٩ ومشكاة المصابيح رقم ١٢٥٣ .
(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن عمار بن ياسر كما في ص ج ص رقم ١٦٢٦ .
(٣) تهذيب مدارج السالكين ص ١٢٧ – ابن قيم الجوزية – هذبه عبد المنعم صالح ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقوم في صلاته فيعلم ما يقول إلا انفتل وهو كيوم ولدته أمه"(١) ثمن "فيعلم ما يقول" عند الله هو غفران الذنوب وكأن الخشوع ممحاة تمحو ما مضى وتنسف ما سلف، صلاة واحدة يا أخى تسري فيها هذه الروح كافية لقلب صحائفك كلها بيضاء.

يا أرباح الخاشعين ما أثمنك . . يا فوز الخاشعين ما أغلاك. قال عليه الصلاة والسلام:"إن العبد إذا قام يصلي أتى بذنوبه كلها، فوضعت على رأسه وعاتقيه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه" (٢).

ويربط عبد الرؤوف المناوي بين هذا الحديث وبين الخشوع فيقول: "المراد أنه كلما أتم ركناً سقط عنه ركن من الذنوب، حتى إذا أكملها تكامل السقوط، وهذا في صلاة متوفرة الشروط والأركان والخشوع كما يؤذن به لفظ العبد والقيام إذ هو إشارة إلى أنه بين يدي ملك مقام عبد ذليل" (٣)

الشروط الجزائية

قال عبد الله بن مسعود: " الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله (ويل للمطففين) "(٤)

وهذا الوعيد الذي توعده الله للمطففين يظهر جلياً في :

فوات الأجر:

(١) رواه مسلم والحاكم عن عقبة بن عامر كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٤٧ .
(٢) رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي في مرج ص رقة ١٦٧١.
(٣) فيض القدير (٣٦٨/٢) عبد الرؤوف المناوي ط. مصطفى محمد .
(٤) مكاشفة القلوب ص ٨٠ – أبو حامد الغزالى – المكتبة التوفيقية .

فإن مراد الصلاة الخشوع وحضور القلب، ومدار الأجر فيها قائم على هذا، وإلا فما أسهل هذرمة اللسان وحركة الأعضاء، وإنما ينال الأجر العظيم على جهد مكافئ له ببذل في قطع العلائق الدنيوية واستجماع الهمم الأخروية. عن أبي هريرة رضي الله أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله جالس في ناحية المسجد فصلى ثم جاء فسلم عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام فارجع فصل فإنك لم تصل، فصلى ثم جاء فسلم فقال: وعليك السلام فارجع فصل فإنك لم تصل، فقال في الثانية أو التي تليها: علمني يا رسول الله ، فعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم. (١)

بئست المناجاة:

رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً ينقر الصلاة فقال له :" يا فلان ألا تتقي الله ؟! ألا تنظر كيف تصلي ؟! إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه " (٢)

إذا وقف المصلي في صلاته فإنما يناجي ربه، ولو ناجى ملكاً من ملوك الأرض لارتعدت فرائصه واقشعر جلده ووقف شعر رأسه ولما غفل أو سها لحظة أو أقل، فكيف بمناجاة مَنْ ملوك الأرض

جميعاً لا يساوون ذرة في ملكه؟ وإذا كان ملوك الدنيا يملكون حطامها وأمثالك يطلبون هذا الحطام، فالأولى أن تعلق آمالك بمن يملك حطام الدنيا ونعيم الآخرة، وأن تعرف قدر السلعة وعظم الجائزة، وعلى هذا الأساس تتعلم فن الطلب وأدب المناجاة. مر الحسن البصري برجل يعبث بالحصى ويدعو: اللهم زوجني من الحور العين، فقال بئس الخاطب تعبث بالحصى، وتطلب الحور" (٣)
جريمة سرقة.

_____

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٣٦
(٢) رواه مسلم والنسائي وابن خزيمة عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٤٢
(٣) إحياء علوم الدين (٢٠٢/١) أبو حامد الغزالي ط. دار إحياء علوم الدين

قال صلى الله عليه وسلم : "أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها" (١) } هو أسوأ الناس سرقة لأنه يسرق في بيت الملك وهو واقف بين يديه وليس بينه وبين ربه حاجب ولا ترجمان فأين حياء العبودية إن لم يكن أدب المناجاة؟
} وهو أسوأ الناس سرقة لأنه يسرق من صلاته فيفسدها، وهي التي لو فسدت فسد عمله كله وأصبح إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب".
} وهو أسوأ الناس سرقة لأن سارق الدنيا ينتفع بما يسرقه ويتمتع به، أما هو فيسرق من حق نفسه في الثواب ويشتري بذلك العقاب في الآخرة. فأقبح بها من سرقة، وأعظم بها من جناية.
وأخبرني يا مضيع الخشوع: ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟ إذا أردت أن تشعر بقبيح فعلك وعظيم جرمك، فخاطب نفسك بما سبق وخاطب به أبو الفرج ابن الجوزي أحد البطالين في زمانه فقال له:
"يا بطال .. لو سافرت بلداً لم تربح فيه حزنت على فوات ربحك، وضياع وقتك. أفلا يبكي من دخل في الصلاة على قرة العين، ثم خرج بغير فائدة ؟! " (٢)
يصلي فيرسلها كالطيور ... ... إذا أرسلت من حصار القفص
يقوم ويقعد مستعجلاً ... ... كمثل الطروب إذا ما رقص
موت على غير ملة محمد صلى الله عليه وسلم :
عن أبي عبد الله الأشعري أن رسول اله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً لا يتم ركوعه وينقر في سجوده وهو يصلي فقال: لو مات هذا على حاله مات على غير ملة محمد صلى الله عليه وسلم (٣)

_____

(١) رواه أحمد والحاكم عن قتادة وأبو يعلى والطيالسي عن أبي سعيد كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٢٥
(٢) الياقوتة ص ١١٤ – ابن الجوزي – ط. دار الفضيلة
(٣) رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى بإسناد حسن وابن خزيمة في صحيحه عن أبي عبد الله الأشعري كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٢٩

وهي كلمة لو سمعها هذا الرجل لخر مغشياً عليه من هولها وثقلها، كلمة تنوء الجبال بحملها قصد بها النبي صلى الله عليه وسلم تعليم أصحابه أهمية السكينة والطمأنينة وحضور القلب في الصلاة، هى كلمة يوجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاقدى الوعى فى صلاتهم يشير عليهم بإصبعه دون مواربة، ويحددهم بأشخاصهم دون غيرهم، ويحذر غيرهم من سلوك طريقهم، ويقول لهم : لو متّم على هذا لمتّم على غير ملتى.
فاستدركوا ما فات عنكم، وابحثوا عما ضاع منكم، مادامت الأنفاس تتردد فالأمل فى اللحاق يتجدد . . ابذروا الإيمان فى الأرض البوار، وأسرعوا قبل فوات القطار، فليس أحد فى قبره يركع ويسجد.
وهذا هو النهج الذي جاءت به ملة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد يبلغ الرجل من العمر عتياً ولا

يكون قد أتم لله صلاة واحدة كاملة الأركان سليمة البنيان. هذا ما قاله عمر بن الخطاب وقد صعد المنبر يوماً: "إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله صلاة، فقال: "لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله تعالى فيها" (١)
بل قد يسجد هو وأمثاله سجدة سماها بعض السلف السجدة المذنبة فقال: إن العبد يسجد السجدة عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا قيل: وكيف يكون ذلك ؟ قال: "يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه " (٢)
تسهيلات المشروع:
لب النداء في الحال:
تصف أم المؤمنين عائشة حال النبي صلى الله عليه وسلم وقت سماعه الأذان فتقول: "كان يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه".

_____
(١) قوت القلوب (٢٠٦/٢)
(٢) الإحياء (٢٠٢/١)، قوت القلوب (٢٠٨/٢)

قبس إبراهيم بن ميمون المروزي من مشكاة الاقتداء، وكان يعمل صائغاً يطرق الذهب والفضة، فإذا سمع النداء وكان رافعاً مطرقته لم يردها، وهذا من فقه الخشوع لأن الإنسان إذا أسرع بتلبية النداء نزع بذلك نفسه من كل ما يشغله داخل الصلاة، فلا يفكر في سواها ويصلي حاضر القلب خاشع الفؤاد، أما إذا استرسل مع الشواغل وتأخر عن الإجابة دخل إلى الصلاة وقد بقي قلبه معلقاً بشغله، فيتابع التفكير فيه وتضيع عليه الصلاة، ولذا أوصى أبو الدرداء وصية مجرب: " من فقه الرجل أن يبدأ حاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ" (١)
يرى الخشوع من تمام الفقه لأن الفقه علم، وما العلم بكثرة الرواية وإنما العلم خشية يورثها الخشوع.
جاء مملوك إلى سيده فقال: ضاعت مخلاة الفرس، فقام السيد يصلي، فلما فرغ من الصلاة قال: هي موضع كذا وكذا، فقال الغلام : "يا سيدي أعد الصلاة فإنك كنت تفتش عن المخلاة " (٢).
المسجد قبل الساجد:
عن أنس رضي الله عنه قال: كان لعائشة قرام سترت به جانب بيتها، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : "أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي" (٣)، ويدخل في هذا الاحتراز من الصلاة في أماكن مرور الناس، وأماكن الضوضاء وبجانب المتحدثين، وفي مجالس اللغو، والاحتماء من كل ما يشغل البصر، ولهذا لما صلى النبي صلى الله عليه وسلم في خميصة ذات أعلام (مخططة) ونظر إلى أعلامها قال بعد انقضاء صلاته : " شغلتني أعلام هذه. اذهبوا بها إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانيه" (٤)
لا صلاة لهؤلاء:

_____
(١) الإحياء (٢٠٢/١) – قوت القلوب (٢٠٥/٢)
(٢) التبصرة (٢٠٤/٢) – ابن الجوزي – ط. دار ابن خلدون
(٣) رواه البخاري وأحمد عن أنس كما في ص ج ص رقم ١٤٠٥ ، والقرام: ستر رقيق من صوف ذي ألوان
(٤) رواه الشيخان عن عائشة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٣٢٦

قال النبي صلى الله عليه وسلم " لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان" (١) والأخبثان هما البول والغائط ولا يستطيع الإنسان الخشوع وهو يدافعهما، وبالنسبة للطعام فلأنه إذا حضر بين يدي المصلي قام يصلي ونفسه متعلقة به، لذا يجب على الجائع أن يبدأ بطعامه قبل صلاته، ولا يعجل حتى تنقضي حاجته لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدؤوا

بالعشاء، ولا يعجل حتى يفرغ منه" (٢)
إياك وتكبيرة الكذابين :
تكبيرة الإحرام هي مفتاح الدخول على ملك الملوك، ودليل افتقار المخلوقين إلى الله، وشهادة إقرار بعظمة الرب وحقارة العبد. الله أكبر تعني أن الله أكبر من كل شيء فإذا بالدنيا تتكمش وتنكمش حتى تعود إلى أصلها وحقيقتها فتكون في نظرك كما هي في نظر الله لا تساوي جناح بعوضة، فعش هذا بقلبك مع كل تكبيرة، إذا سهوت أثناء قيامك ثم ركعت أيقظك صوت الله أكبر ليذكرك بضرورة الصدق مع نفسك، وموافقة قلبك لسانك فيما يقول، وإذا غفلت في سجودك ثم قمت منه نبهك صوت: الله أكبر ليبعث فيك التعظيم يسري من فمك إلى أذنك ومن أذنك إلى قلبك فيكون تعظيم القلب تالياً لتعظيم اللسان. ويعجب المرء: ألا يستحيي المرء من أن يبدأ يومه بكذب على الله؟ يدخل إلى صلاة الفجر بتكبيرة الله أكبر وهو كاذب في دعواه، ثم يبدأ بدعاء الاستفتاح في الصلاة فيقول: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض .. "، ثم هو بعد ذلك وجهته شهوته، وقبلته متعته، وإلهه هواه، فإذا أردت الخشوع فابدأ صلاتك بصدق، ودع عنك تكبيرة الكذابين وفجِّرها في وجه الشيطان واصدع بقوة : الله أكبر.
صل صلاة مودع:

_____
(١) رواه مسلم وأبو داود عن عائشة كما في ص ج ص رقم ٧٥٠٩
(٢) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن ابن عر كما في ص ج ص رقم ٨٣١

قال النبي صلى الله عليه وسلم موصياً أبا أيوب: "إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع" (١) يريد أن يقول لأبي أيوب ولمن جاء بعد أبي أيوب: قم إلى صلاتك وظلال الموت تغمرك، وأنفاس ملك الموت تمازج أنفاسك يوشك أن يبتدرك فيقبض روحك فور تسليمك، فهي آخر صلواتك، وخاتم عهدك بدنيا البشر، وإيذان بقرب طي صحيفتك وفراغ حفظتك، فأدها أداء من علم أنه ليس بينه وبين القدوم على ربه غير التسليم . . عندها تخشع.
ولأهمية الوصية يكررها النبي صلى الله عليه وسلم ولكن هذه المرة إلى أنس فيقول له: "اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل، إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته" (٢)
كان لأبى حلال العتكى طريقة عجيبة فى اقتلاع حشائش الدنيا من قلبه قبيل الصلاة، وغرس أشجار الآخرة بدلا منها يهزها فتساقط من ثمار الخشوع رُطبا جنيا ، لكنه كريم لا يمنع فضله عن غيره . . فطن يريد أن يصيب أجورا كثيرة بعبادة وحيدة ، لذا كان يأتى فوق غرفة فيأتى بعض أبوابها فيشرف على شق من ناحية الحى فينادى : يا فلان بن فلان (من الأموات)، ثم يقبل على الشق الآخر فيقول مثله، حتى يأتى على الأركان الأربعة، ثم يقول : " هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا "، ثم يقبل على الصلاة وقد استقر ذكر الموت فى قلبه وقلب من سمعه.(٣)
رتل وحسن صوتك:
وهو أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم "ورتل القرآن ترتيلاً " }المزمل ٤{ لذا كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم مفسرة حرفاً حرفاً، وهذا الترتيل أدعى إلى التفكر والخشوع بخلاف العجلة والإسراع.

_____
(١) رواه أحمد وابن ماجة عن أبي أيوب كما في ص ج ص رقم ٧٤٢
(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس وحسنه الألباني ف ص ج ص رقم ٨٤٩
(٣) حلية الأولياء (١٠٥/٣) .

وصنو هذا تحسين صوتك بتلاوة القرآن، وهي وصية أريجها أطيب من شذى الزهور والرياحين يهديها إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: "زينوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً " (١)

ولا يتذرعن أحد بقبح صوته فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن جمال الصوت يكون مع القراءة بحزن فقال "أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله". (٢)

تدبر وتفاعل

من أراد الوصول إلى بر الخشوع فعليه أن يبحر في بحر التدبر، وأن يغوص في نهر الدموع. قال عز وجل: "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب " ومن تدبر بقلبه دمعت عيناه ومن لم يجاوز القرآن حنجرته إلى قلبه قسا قلبه وأجدبت عيناه. قال ترجمان القرآن الحبر عبد الله بن عباس: إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه" (٣)

وسجدة سبحان هي سجدة سور الإسراء في قوله" ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً" الإسراء ١٠٩

وبكاء القلب هو التدبر الذي يورث الخشية، وبكاء القلب حتماً سيورث بكاء العين، لذلك إن رزقت هذه الخشية فأبشر فقد أوشكت على الوصول. ومما يعين كثيراً على التدبر ترديد الآيات وتكرارها كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم فقد قام ليلة بآية واحدة حتى طلع عليه الصبح وهي قول تعالى: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" (٤) }المائدة ١١٨{

حقق معاني الصلاة:

كل عمل من أعمال الصلاة يرمز لمعنى ويرمي لمغزى، له دلالة وفي طياته إيماء.

---

(١) رواه الحاكم عن البراء كما في ص ج ص رقم ٣٥٨١

(٢) رواه البيهقي في الشعب والخطيب البغدادي عن ابن عباس والديلمي في الفردوس عن عائشة كما في ص ج ص رقم ١٩٤

(٣) قوت القلوب (٩٩/١)

(٤) رواه ابن خزامة وأحمد (١٤٩/٥) وهو في صفة الصلاة ص ١٠٢

الوضوء هو مشاركة السماء لك وإفاضتها عليك بمعاني التزكية والسمو والترقي والعلو، أو هو إزالة غبار شهواتك الذي امتد إلى أطرافك وغمر أعضاءك فهو طهارة الظاهر والباطن معاً، وماؤه الماء الذي يروي شجرة الخشوع في القلب لتنمو وتنمو إلى أن تثمر.

استقبال القبلة هو استدبار غيرها، وكما لا يتوجه إلى الكعبة إلا بالانصراف عن غيرها فكذلك القلب لا يتوجه إلى الله إلا بالانصراف عن غيره.

القيام هو الوقوف بين يدي الله بلا حاجب ولا ترجمان تدريباً لوقوف أشق غداً يوم العرض الأكبر.

السجود هو تمكين أعز أعضائك (الجبهة) من أذل الأشياء وهو التراب وهذا هو قمة الخضوع والتذلل لله، وأنت بذلك ترد الفرع إلى الأصل (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) }طه: { وتنال جائزة (ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة) (١)

حذار من خنزب

عن أنس أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً. قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني" (٢)

"خنزب" شيطان الصلاة الذي لا عمل له سوى إفساد صلاتك وتضييع خشوعك، يبدأ عمله مع تكبيرة الإحرام وينتهي مع التسليم وبينهما الوسوسة وقطع الطريق فلا سير إلى الله بل بعيداً عنه، ولا زيادة في إيمان بل أخذاً منه، ولا بناء قلب بل قلب قلب، وتفصيل ذلك أن يلقي في قلبك ذكر أمور الدنيا التي لم تكن حاضرة في ذهنك قبل دخولك الصلاة، فتنشغل بها وتستيقظ على تسليم الإمام معلناً انتهاء أو بالأحرى ضياع الصلاة.

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان عن ثوبان كما في ص ج ص رقم ٥٧٤١

(٢) رواه مسلم عن أنس كما في مختصر صحيح مسلم رقم ١٤٤٨

فقه سلفنا الصالح هذه العداوة، فلما جاء رجل إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان يشكو إليه أنه دفن مالاً في الصحراء ونسي مكانه فما العمل؟ فأجابه الإمام أن قم من الليل فتوضأ وصل ركعتين وادع الله أن يذكرك مكان المال.
في اليوم التالي جاء الرجل متهلل الأسارير منشرح الصدر فسأله الإمام: ماذا فعل الله بك؟ قال كل خير، قمت كما أوصيتني فتوضأت وشرعت في الصلاة، وبينما أنا أصلي إذ تذكرت مكان المال، فقال له الإمام: كنت أعلم أن الشيطان لن يتم عليك صلاتك. فالحذر الحذر من هذا العدو، ونفذ وصية النبي العدنان لتصل بتوفيق الله إلى بر الأمان.
عليك بصلاة أبي اليقظان
صلى عمار بن ياسر رضي الله عنه صلاة خففها فقيل له خففت يا أبا اليقظان، فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا قال: فإني بادرت سهو الشيطان (١) وكذلك كان الزبير وطلحة ونفر من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من أخف الناس صلاة ولما سئلوا في ذلك قالوا: "نبادر بها وسوسة العدو" (٢)
وحد الاعتدال في هذا أن لا تطيل صلاتك إطالة تؤدي إلى سهوك وغفلتك عن معانيها، ولا تقصرها إلى حد يخل بخشوعك فيها.
قال أبو طالب المكي في القوت: "واعلم أن طول الصلاة عليك غفلة، وقصرها سهو، لأنها إذا طالت عليك دل على عدم الحلاوة ووجود الثقل بها وكبرها على جوارحك، وإذا قصرت عليك وخفت دل على نقصان حدودها ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصرها والاستقامة في الصلاة أن لا تطول عليك لوجود الحلاوة ولذة المناجاة وحسن الفهم واجتماع الفهم، ولا تقصر عليك ليقظتك فيها ورعايتك حدودها وحسن قيامك بها، وهذه مراقبة المصلين ومشاهدة الخاشعين" (٣)
عند التسليم
الله أكرم

---

(١) الإحياء (٢٠٢/١)، قوت القلوب (٢٠٥/٢)
(٢) السابق
(٣) قوت القلوب (٢٠٨/٢)

حكي عن عبد الله بن المبارك رحمه الله أنه جاء إليه في بعض الأيام سائل ليسأله شيئاً من الطعام فلم يحضر عنده شيء سوى عشر بيضات، فأمر جاريته بأن تعطيه إياها فأعطته تسعة وخبأت واحدة، فلما كان وقت غروب الشمس جاء رجل دق الباب وقال خذوا مني هذه السلة فخرج عليه عبد الله رضي الله عنه وأخذها منه فرأى فيها بيضاً فعده فإذا هو تسعون بيضة، فقال لجاريته: أين البيضة الأخرى؟ كم أعطيت السائل ؟ فقالت: أعطيته تسعاً وتركت واحدة نفطر عليها، فقال لها: غرمتينا عشراً.(١)
مشروع ٤
أبواب السماء مفتوحة
وقفة إيمانية
إذا أجدبت الأرض وجف الضرع وانقطع الماء عن الزرع، مد الزارع يد الطلب يستعطي، وأمال الرأس خاضعاً، وخلع ثوب الأوراق شاكياً، طالباً من موجده حرارة الشمس وبرودة الماء ولطف الهواء واحتضان التربة منادياً إياك بلسان حاله: بي مثل ما بك ولم أقبل على غيره، وعلتنا متشابهة ولم ألجأ إلى سواه، خالقنا واحد ولم أطرق باب فقير مثلي. فتعلم مني.
قبل التنفيذ
استغاثة
حين تصرخ من قسوة الظلم فلا تسمع سوى صدى صوتك، وتتأوه من شدة الألم فلا تجد غير رجع الأنين، وتنهمر من عينيك العبرات من وقع القهر، فاعلم أنك تملك سهاماً نافذة يغفل عنها الظالمون ولا يغفل ربنا عنها تنطلق من قوس دعائك لحظة أن تصدح بهتاف .. يا رب.

حين تشكل ذنوبك سداً يحول بينك وبين النور، وحين تمثل آثامك قيداً يمنعك من المسارعة في الخيرات، وحين يعلو الران وتستحكم الأقفال، فاعلم أن لك رباً يغفر الذنوب جميعاً إذا سمع منك ابتهالات هتاف .. يارب.
حين يضطرب الموج، أو تهيج العاصفة وتطيش العقول، ويعلو الصراخ، ويفتضح الضعف، ويعترف الناس بعجزهم وقدرته، وفقرهم وغناه، عندها تلهج الألسنة في استماتة وضراعة باستنجادات هتاف .. يارب.

(١) الفتح الرباني ص ١٩٧، ١٩٨ عبد القادر الجيلاني، ط. دار الريان للتراث

حين تسلك الطرق فتجدها قد سُدت، وتطرق الأبواب فتجدها قد أُغلقت، وتطلب العون من أهل العون فما ثم إلا عاجز أو جبان، فاعلم أنه إنما سد عليك الأبواب كلها لتطرق بابه، وقطع عنك الحبال جميعها لتعتصم بحبله، وأنه اشتاق إلى أن يسمع منك نغمات هتاف .. يارب.
حين تحل النكبة، وتستحكم البلية، وتتكسر النصال على النصال، وتربط حبال الخطوب عقدها، وتكون ظلمات بعضها فوق بعض فتيقن أن نوراً عظيماً يبدد دياجير هذه الظلمات يشرق من ثنايا هتاف .. يارب.
حين يستند الغني إلى ماله، ويعتمد القوي على بطشه، ويركن صاحب الجاه إلى نفوذه وسلطانه، فإن المؤمن يطرح كل هذه القوى بعيداً ويستند إلى ربها وموجدها ويأوي إلى ركن شديد حين تنطلق من أعماق أعماقه استغاثات هتاف .. يارب.
أرباح المشروع:
أكرم شيء على الله
قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء" (١) ، وسبب هذه الكرامة أن الدعاء في معناه الضمني هو تأكيد الإنسان على إنسانيته بكل ما تحويه من ضعف وعجز وجهالة، واعترافه بقدرة الله وعظمته وقيومته، أي إقراره بأن الرب رب والعبد عبد، وإعادته سيرته الأولى إن كانت نفحة كبر أصابته، أو طائف من غرور مسّه، وهذا هو جوهر العبادات ولبها، وليس العجب من عبد يتذلل لسيده ويتقرب إليه ولا يمل خدمته، فكل عبد محتاج إلى سيده مفتقر إليه لا يستطيع العيش بغيره، وإنما العجب كل العجب من سيد يتحبب إلى عبده بصنوف النعم وفيوضات الكرم ويتودد إليه بشتى أنواع الإفضال والإحسان مع غناه عنه وعدم احتياجه إليه.

(١) رواه أحمد والبخاري في الأجب المفرد والترمذي والحاكم عن أبي هريرة وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٥٣٩٢

هذا الربح لمح بريقه من بعيد مطرف بن الشخير فانطلق يحكى ما رأى : " تذكرت ما جماع الخير فإذا الخير كثير : الصوم والصلاة ، وإذا هو فى يد الله عز وجل ، وإذا أنت لا تقدر على ما فى يد الله عز وجل إلا أن تسأله فيعطيك ، فإذا جماع الخير : الدعاء.(١)
لا يرد القدر إلا الدعاء (٢)
باب الملك مفتوح وأبواب العبيد مغلقة، فإذا طرق عبد المغلق وترك المفتوح وآثر إفلاس المفاليس على غنى الغنى فتعجب من حاله: ظمآن والماء بين يديه .. تائه والدليل أقرب إليه من حبل الوريد، وعند ذاك اعلم أنه صار إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان.
كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... ... والماء فوق ظهورها محمول
وقد يتبادر إلى الأذهان تساؤل مفاده: مادام القضاء قد مضى والقدر قد سبق به القلم فما فائدة الدعاء ؟
يجيب أبو حامد الغزالي فيقول:
اعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس

سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: "خذوا حذركم" ، وأنه كما يسقى الماء الأرض بعد بث البذر فيه فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب (٣)

_____

(١) الزهد ص٢٩٥ – أحمد بن حنبل – ط دار الريان.
(٢) رواه الترمذي والحاكم عن سلمان كما في ص ج ص رقم ٧٦٨٧ والسلسلة الصحيحة رقم ١٥٤.
(٣) الإحياء (٣٩٠/١)

رأى أصحاب نور الدين محمود زنكي كثرة إنفاقه على الفقراء والمساكين ولا سيما طلبة العلم، وشدة طلبه الدعاء منهم، فعوتب في ذلك فقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراش بسهام لا تخطئ (يريد الدعوات)، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ" (١)

اطلب ما تشاء

قال ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه: "كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً، ومتى أطلق لسانك فاعلم أنه يريد أن يعطيك" (٢) يعطيك ما تشاء وقتما تشاء كيفما تشاء مهما عز مرادك وعظم مطلوبك

قال تعالى:" وقال ربكم ادعوني أستجب لكم" }غافر : ٦٠{

وقال الإمام القشيري في تفسيره (لطائف الإشارات): "ادعوني بالطاعات أستجب لكم بالثواب والدرجات، ويقال : ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة، ويقال: ادعوني بالتنصل أستجب لكم بالتفضل، ويقال: ادعوني ببذر الطاعة أستجب لكم بكشف الفاقة، ويقال: ادعوني بالسؤال: أستجب لكم بالنوال والإفضال" (٣)

ومطالب العبد لا تنفد وحاجاته لا تنتهي فإذا أوى إلى ركن الله وألقى حمله عليه بالكلية لبى وأجاب قال النبي صلى الله عليه وسلم "ادع إلى ربك الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضلك بأرض فلاة قفر فدعوته رد عليك والذي إن أصابتك سنة فدعوته استجاب لك" (٤).

وإليك بشارة ونذارة ابن عطاء: "ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك" (٥)

دعاء الذليل أفضل الطاعات:

_____

(١) وقفات مع الأبرار ص ١٠٥ نقلاً عن خطط الشام لكردعلي – محمد لطفي الصباغ- ط. المكتب الإسلامي
(٢) شرح الحكم (٦٩/١) – ابن عباد النفري الزندي – ط. دار إحياء الكتب العربية
(٣) لطائف الإشارات (٣١٣/٣) – الإمام القشيري – ط. الهيئة المصرية للكتاب
(٤) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي ع نأبي جري كما في ص ج ص رقم ٢٤٤
(٥) شرح الحكم ٢٥/١

وبذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أفضل العبادة الدعاء" (١)

وما نال الدعاء هذا الفضل إلا لأن العبد فيه يرمي بنفسه بين يدي خالقه، خارجاً من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، مقراً بالإساءة والعجز والجهالة، مسلماً بكمال الله وعظمته وقوته، وبهذين: سوء ظن بنفسه وتعظيم ربه يصل أو يوشك.

هذه تجربة ابن قيم الجوزية في الدخول على الله. قال رحمه الله: "دخلت على الله من أبواب الطاعات

كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مُزاحم فيه ولا مُعوِّق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه". (٢)

أرباح غير مرئية:

قال صلى الله عليه وسلم: "ما من داع يدعو الله إلا أتاه بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها" (٣)

فليس الخير دائماً كما تظن: في إجابة سؤلك وتحقيق طلبك.

فربما لم يجبك لكنك لا تعلم ما رده الدعاء عنك من بلاء، وما جرى من تصارع بين البلاء النازل والدعاء الدافع انتهى بنجاتك ودفع الشر عنك فحمداً لله على سلامتك.

وربما لم يجبك لأنه سبق في علمه أن كفة حسناتك لن ترجح يوم القيامة إلا أن يوزن فيها أجر دعائك المؤجل إلى الآخرة، فإذا رأيت يوم القيامة أن ما أجبت فيه قد ذهب، وما لم تجب فيه قد بقي ثوابه قلت: ليتك يا رب لم تجب لي دعوة قط !!

_____

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس وابن سعد عن النعمان بن بشير كما في ص ج ص رقم ١١٢٢

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٢٩

(٣) رواه الترمذي عن عبادة بن الصامت رقم ٣٥٧٣

وربما لم يجبك لسابق علمه أن الخير في صرف هذا المطلوب عنك، فهو وحده المطلع على الغيب ولذا فهو الأدرى بما ينفعك و يصلحك فإن كان المطلوب مالاً فلربما أطغاك وأفسدك، وإن كان ولداً فلربما كبر عاقاً فأعياك وأزَّمك، و إن كان عملاً أو وظيفة فلربما فتحت لك باباً للحرام أرداك وضيعك، فكم من محبوب في مكروه ومكروه في محبوب ولا يعلم ذلك إلا الله.

وربما لم يجبك لأنك أدخلت الحرام في رزقك أو أسكنت شهوة في قلبك، فيكون عدم الإجابة بمثابة لفت نظر لتصحح ما سبق وتستدرك ما فات.

وربما لم يجبك لأنه أراد أن يصل حبالاً قطعتها ووشائج هجرتها فألجأك إليه حتى يسمع همسك في الأسحار ويرى دمعك المدرار فيغسل ذنوباً لا يغسلها غير دموع الأسى على ما فات والندم على ما انقضى. أليس هذا الذي قلناه هو ما أوجزه ابن عطاء في قوله: "لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً ليأسك، فهو قد ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا الوقت الذي تريد".(١)

الشروط الجزائية

من ترك الدعاء فقد:

غضب الله عليه

قال النبي صلى الله عليه وسلم "من لم يسأل الله يغضب عليه" (٢)

وهذا بعكس العبد الذي يغضب إن أثقلت كاهله بطلب أو شغلت وقته بسؤال، وما أصدق قول القائل:

لا تسألن بُنَي آدم حاجة ... ... وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... ... وبُنَي آدم حين يسأل يغضب

تذلل يحيى بن معاذ بهذا المعنى في دعائه فقال: " يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك" (٣)

ووكله إلى نفسه

_____

(١) شرح الحكم ٧/١ .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم ٦٥٨ والترمذي رقم ٣٣٧٠ وهو حسن

(٣) صفة الصفوة (٦٦/٤)

... فقد أجمع الصالحون على أن الخير كله في أن يكلك الله إليه، والهلاك كل الهلاك في أن يخلي بينك وبين نفسك وهي نفس عاجزة لا تملك من أمر نفسها فضلاً عن أمر غيرها شيئاً، ظالمة تورد صاحبها المهالك وتلحق به المعايب، جهولة لا تعرف ما يضرها وما ينفعها، بل قد تعمل أعمالاً تظن أنها صلاح وهي عين الفساد بأن تتحرك في موضع السكون، أو تسكن في موضع التحرك، أو تقدم في موضع الإحجام، أو تحجم في موضع الإقدام، فإذا علم المرء ذلك عن نفسه أدرك هو المحنه وعظم المصيبة إن لم يتداركه الله بعون فانطلقت صرخات استغاثته معلناً: (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني لنفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)(١) ليجد الرد من رب كريم جواد على شكل وحي حوى النذارة والبشارة معاً

قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود .. أما وعزتي وجلالي لا يستنصر بي عبد من عبادي دون خلقي، أعلم ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له بهن فرجاً ومخرجاً .. أما وعزتي وجلالي وعظمتي .. لا يستعصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء دونه، ولا أبالي في أى واد هلك" (٢)

وأنت تعلم جيداً أنه (لما طلب آدم الخلود في الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها، ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث في السجن بضع سنين). (٣)

وصار أعجز الناس:

_____

(١) رواه أحمد وأبو داود وبان حبان عن أبي بكرة وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٣٣٨٨

(٢) شرح الحكم ٢٤/١

(٣) الفوائد ص ٤٦

... ليس هذا وصفنا له بل وصف الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال: "وأعجز الناس من عجز عن الدعاء" (١) من مثلك يا ابن آدم .. خلِّ بينك وبين ربك لا تلقى على بابه حاجباً ولا ترجماناً تدخل عليه في أي وقت تشاء فترفع حاجتك وتقدم مسألتك، فإن قيد الذنب رجليك عن دخول المسجد، وكبل النوم يديك عن رفع أكف الضراعة افتضح أمرك ووصل خبرك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلق عليك وصف (أعجز الناس) غير ظالم لك أو متجن عليك.

كريم إذا يممت بالصدق بابه ... ... فإنك لا تلقى على الباب حاجباً

وإن كنت ذا ذنب فتب منه واعتذر ... ... كأنك لم تذنب إذا جئت تائباً

تسهيلات المشروع:

سئل زين العابدين بن الحسين: كم بين عرش الرحمن وتراب الأرض؟ قال: دعوة مستجابة. ليست أميالاً وكيلومترات بمقاييس المادة وإنما دعوة مجابة بمقاييس الإيمان. ولكن ما هي شروط إجابة الدعاء؟

أشهر إفلاسك أولاً

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين صيحة استغاثة أطلقها يونس عليه السلام من أعماق قلبه الغارق في أعماق الظلمات: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، أطلقها وقد ملأته مشاعر الخوف والوحشة والوجل والرهبة، وقد تملكته حالات التضرع والخضوع والتذلل والخضوع ولذا استجيب دعاؤه.

فإذا رددت هذه الكلمات دون أن تغمرك هذه الظلمات فما حظك من دعائك غير تحريك لسانك وتضييع أوقاتك، ومعنى أن تغمرك أن تنبض كل نبضة من قلبك بمعاني الضعف والفقر والذل والحاجة، وأن تشعر كما شعر نبي الله يونس أن أمواج محنتك محيطة بك من كل جانب توشك أن تغرقك إلا أن يتداركك الله برحمة منه وفضل، وأن يبرز ذلك في كلامك واضحاً فإن كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، وعندها تصل إلى شاطئ الأمان كما وصل ذو النون وعد الله في كتابه (وكذلك ننجي المؤمنين) ووعد نبيه في حديث (من دعا بدعاء يونس استجيب له) (٢)

_____

(١) رواه أبو يعلى عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ١٥١٩

أحضر قلبك معك:
قال النبي صلى الله عليه وسلم "واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه" (١) قال الإمام الرازي معلقاً " أجمعت الأمة على أن الدعاء اللساني الخالي من الطلب النفساني قليل النفع عديم الأثر" (٢) بل يجزم يحيى بن معاذ بأن (من جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يرده" (٣)
ولحضور القلب مؤشرات وعلامات إذا ظهرت فهي فرصة سانحة فاغتنمها ولا تفوتها وليلهج لسانك عندها بالدعاء فإنك مجاب بإذن الله. قال ثابت بن أسلم البناني: "وإني أعلم حين يستجيب لي، فعجبوا من قوله وقالوا: تعلم حين يستجيب لك ربك؟ قال نعم. قالوا: كيف تعلم ذلك؟ قال: "إذا وجل قلبي واقشعر جلدي وفاضت عيناي وفتح لي الدعاء فثم أعلم أن قد استجيب لي ". (٤)
فإذا لم يجب دعاؤك فاسأل نفسك وواجهها: هل وجل قلبك؟ هل اقشعر جلدك؟ هل فاضت عيناك؟ فإن كان الرد بالنفي، فعلى نفسك جنت نفسك فألق باللائمة عليها فهي المستحقة للتهذيب والتأديب لا غيرها.
ونظراً لأن شجرة الإيمان واحدة ونبع التلقي لا يتغير فقد فهم هذا الفهم المؤمنون الصادقون رجالاً كانوا أم نساءً . قالت أم الدرداء: إنما الوجل في قلب ابن آدم كاحتراق السعفة أما تجد لها قشعريرة؟ قال أحدهم: بلى، قالت: فادع الله إذا وجدت ذلك فإن الدعاء يستجاب عند ذلك؟
وتذكر معي هذه الأبيات جيداً واحفظها إن استطعت:
سهام الليل صائبة المرامي ... ... إذا وترت بأوتار الخشوع
يسددها إلى المرمى رجال ... ... يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم من دعاء ... ... وأجفان تفيض من الدموع
قدم العمل الصالح:

(١) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٢٤٥
(٢) فيض القدير (٢٢٩/١)
(٣) الفوائد ص ٦٢
(٤) صفة الصفوة (١٤٨/٣)

إن غاب العمل الصالح لم يرتفع الدعاء فوق رأس صاحبه شبراً، وإن حضر استجاب الله دعاءه قبل أن يغادر لسانه، وتأمل معي في الأعمال التي يصل ثوابها إلى الميت بعد موته تر فيها (وولد صالح يدعو له) فلولا صلاحه ما وصل دعاؤه وما حصل به نفع.
قال بعض السلف "الدعاء بلا عمل كالقوس بلا وتر" (١)
ولذا لما قال نفر لأنس بن مالك: يا أبا حمزة ادع الله لنا، قال "الدعاء يرفعه العمل الصالح"(٢)
اسمع نصيحتي وجرب أن تدعو عقيب دمعة من خشية الله ذرفتها، أو صدقة في ظلام الليل بدلتها، أو جرعة غيظ تحملتها وما أنفذتها، أو حاجة مسلم سعيت فيها فقضيتها، وستذهلك سرعة الإجابة، فلا ينسينَّك فرحك بها اسم الفقير الذي أرشدك إلى هذه الوصية وأد حقه عليك: اذكره بدعوة.
كن على يقين من الإجابة:
قال النبي صلى الله عليه وسلم "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة" (٣)
قال المناوي " أي جازمون بالإجابة لأن الداعي إذا لم يكن جازماً لم يكن رجاؤه صادقاً، وإذا لم يصدق الرجاء لم يخلص الدعاء، إذ الرجاء هو الباعث على الطلب، ولا يتحقق الفرع بدون تحقق الأصل، ولأن الداعي إذا لم يدع ربه على يقين أنه يجيبه، فعدم إجابته إما لعجز المدعو أو بخله أو عدم علمه بالابتهال وذلك كله على الحق - تقدس - محال" (٤)

(١) نزهة المجالس ومنتخب النفائس ص ١٢٨ – عبد الرحمن الصوري الشافعي – ط. المكتبة التوفيقية

(٢) الزهد ص ٣٩٠ – عبد الله بن المبارك – ط. دار ابن خلدون
(٣) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٢٤٥ والسلسلة رقم ٥٦٤
(٤) فيض القدير (٢٢٨/١) بتصرف

فإن اعتزلت الدعاء بحجة أنك مثقل بالآثام مكبل بالخطايا فأنى لمثلك أن يستجاب له؟! سألناك وقلنا: أيهما خير أنت أم إبليس؟ ولا تستغرب سؤالنا واسمع إلى سفيان بن عيينة حين يقول: "لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس إذ قال: (رب أنظرني إلى يوم يبعثون) وهو شر منك" (١)، قال : " إنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ".
مُر بالمعروف وانه عن المنكر:
قال النبي صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم" (٢)
فمن لم يبر سهام دعائه بسكين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جاءت سهامه باردة وطاشت، وليست السهام معيبة لكن العيب في الرامي
لا تستعجل :
قال النبي صلى الله عليه وسلم "ليستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: قد دعوت فلم يستجب لي" (٣) ولا تزال مظنة الإجابة قائمة إلى أن يستعجل فعندئذ يغلق باب الإجابة، والمستعجل (بمنزلة من بذر بذرة أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله) (٤)
ولتأخير الإجابة حكم لا تخفى على شيخ الحكمة أبو الفرج ابن الجوزي الذي قال: "اعلم أن دعاء المؤمن لا يرد غير أنه قد يكون الأولى تأخير الإجابة ، أو يعوض بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، فينبغي للمؤمن أن لا يترك الطلب من ربه فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض" (٥)

_____
(١) المستطرف في كل فن مستظرف ص ٥٤٠، ٥٤١
(٢) رواه أحمد والترمذي عن حذيفة وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٧٠٧٠
(٣) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٨٠٨٥
(٤) الداء والدواء ص ٢٤
(٥) فتح الباري (١٤٥/١١).

فإذا نفد صبرك فأنت الخاسر: أسأت الأدب مع الله فصرت أحد رجلين: إما منان وإما بخيل. قال ابن بطال معلقاً على الحديث السابق: "المعنى أن يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمان بدعائه أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق الإجابة فيصير كالمبخل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء" (١)
فلا يدبن اليأس في قلبك إذا تأخرت الإجابة، فإن حدث بدده صوت الأمل ينبعث من حنجرة أبي الدرداء معلناً: (جدوا في الدعاء فإن من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له" (٢)
جدد توبتك:
تشكل ذنوب العبد سداً منيعاً يقف حائلاً دون إنفاذ دعائه، فإذا تخلص منها بتوبة أو غسلها بدمعة أو أحرقها بندم هدم الجدار، ووصلت رسائله مباشرة وجاءه الرد والإجابة.
ويعجب المرء من قوم يعصون المغيث ويستغيثون به، يبارزون المعين ويطلبون منه، يكفر أحدهم بنعمة ربه ليلاً ويصبح وقد طلب المزيد، ما هذا الإحساس البارد بل ما هذه الجرأة العجيبة؟

_____
(١) السابق .
(٢) صلاح المؤمن ص ٤١ – ابن الإمام – د. دار ابن كثير ودار الكلم الطيب.

روى ابن قدامة في كتاب التوابين أنه لحق بني إسرائيل قحط على عهد موسى عليه السلام، فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا كليم الله. ادع الله لنا أن يسقينا الغيث، فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفاً أو يزيدون، فقال موسى عليه السلام : إلهي اسقنا غيثك وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع والبهائم الرتع والمشايخ الركع فما زادت السماء إلا تقشعاً والشمس إلا حرارة فأوحى الله إليه: فيكم عبد يبارزني منذ أربعين سنة بالمعاصي فناد في الناس حتى يخرج من بين أظهركم فبه منعتكم، فقال موسى: إلهي وسيدي عبد ضعيف وصوتي ضعيف فأين يبلغ وهم سبعون ألفاً أو يزيدون، فأوحى الله إليه منك النداء ومني البلاغ فقام منادياً وقال: يا أيها العبد الذي يبارز الله منذ أربعين سنة: اخرج من بين أظهرنا فبك منعنا المطر، فقام العبد العاصي فنظر ذات اليمين وذات الشمال فلم ير أحداً خرج، فعلم أنه المطلوب فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق افتضحت على رؤوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم منعوا لأجلي فأدخل رأسه في ثيابه نادماً على فعاله وقال : إلهي وسيدي عصيتك أربعين سنة وأمهلتني، وقد أتيتك طائعاً فاقبلني، فلم يستتم الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القرب، فقال موسى: إلهي وسيدي بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحد؟ فقال: يا موسى سقيتكم بالذي منعتكم به، فقال موسى: إلهي أرني هذا العبد الطائع ، فقال: يا موسى إني لم أفضحه وهو يعصيني أأفضحه وهو يطيعني؟! (١)
اشهد مجالس الخير:

(١) كتاب التوابين ص ٥٦، ٥٧ بتصرف يسير – ابن قدامة المقدسي – ط. دار المنار ومكتبة فياض.

فإن الله يستجيب دعاء شاهد مجالس الخير ويغفر له ببركة جلوسه معهم فيقول لملائكته: "فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم" (١)
فتأمل حفظك الله كيف أجاب الله دعاء هذا الرجل وغفر ذنبه ببركة مجالسة أهل الإيمان حتى وإن كان جلوسه معهم طمعاً في مال، أو رغبة في إنفاذ مصلحة، أو نزولاً على رغبة صديق ملحاح لم يجد مفراً من إجابته.
الملك العظيم إذا نزل عليه ضيوف أكرمهم غاية الإكرام فأسكنهم قصره، وقدم لهم ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وهيأ لهم سبل الراحة النعيم، ثم أمر بدوابهم أن تعلف وتوضع في الحضيرة الملكية فأكرمت البهائم بسبب الصحبة، ونعمت بالزاد والمبيت بسبب الرفقة، وفي هذا إشارة لك: ارتد ثياب الصالحين تحسب منهم، وزاحم بمنكبيك مجالسهم ترحم بسببهم، عفواً فلست أحقر من البهائم، وربك حاشاه ليس الملك أكرم منه.
تأدب
كان بعض السلف يقول: إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل، فالخير كله في اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم والتأدب بآدابه ومن ضمنها آداب الدعاء والتي نوجزها فيما يلي:

(١) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٢١٧٣

ادع الله وأنت على طهارة مستقبلاً القبلة، رافعاً يديك حذو منكبيك حتى يرى بياض إبطيك، وابدأ الدعاء بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكرر دعاءك ثلاثاً، وألح فيه، ولا تدع بإثم ولا قطيعة رحم، ولا بأمر قد فرغ منه، ولا بمستحيل وقوعه، واسأل الله بعزم فلا تقل: اللهم اغفر لي إن شئت أو أدخلني الجنة إن شئت بل بدون إن شئت، وتجنب السجع في الدعاء والتكلف فيه، وليكن صوتك فيه بين المخافتة والجهر، واحرص على جوامع الدعاء من القرآن

الكريم ومن السنة المطهرة فهو أرجى للإجابة، واختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما بدأت، وانتظر بعد ذلك الإجابة فهي أقرب إليك مما تظن.
كن من هؤلاء:
يستجيب الله للمضطر إذا دعاه، وللمظلوم ولو كان فاجراً أو كافراً، ولمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، وللوالدين على ولدهما، وللإمام العادل، وللمسافر حتى يرجع، وللمريض حتى يبرأ وللصائم حتى يفطر، فإذا استطعت أن تكون واحداً من هؤلاء فافعل.
أدمن أكل الحلال:
لأن (مثل المجتهد في الدعاء مع الاغتذاء بالحرام كمثل الرامي بالسهام في هدف من رخام) (١) ولقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له) (٢)
أشبه من يتوب على حرام ... ... كبيض فاسد تحت الحمام
يطول عناؤه في غير شغل ... ... وآخره يقوم بلا تمام
إذا كان المقام على حرام ... ... فلا معنى لتطويل القيام
وهي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نعلمه من خلال كتب السير أن سعداً نفذ الوصية فكان رضي الله عنه لا ترد له دعوة.

_____
(١) التذكرة في الوعظ ص ٢١٩، ٢٢٠ – ابن الجوزي – ط. دار ابن خلدون
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة كما في مختصر صحيح مسلم رقم ( )

شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأرسل عمر رجلاً إلى الكوفة يسأل عنه فلم يترك مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبنى عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة ويكنى أبا سعدة فقال: أما إذ نشدتنا _ أي طلبت منا الشهادة – فإن سعداً لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية، فقال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة فأطل عمره وعرضه للفتن. قال عبد الملك بن عمير راوي الواقعة: فأنا رأيته يتعرض للإماء في السكك بعد أن سقط حاجباه على عينيه من الكبر فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا سعدة؟ قال: "كبير مفتون أصابتني دعوة سعد" (١)
وقد تشدد سلفنا الصالح في التحذير من أكل الحرام ومصاحبة أهله، وما هو في حقيقته بتشدد ولكنها حياة قلوبهم أرتهم الذنوب على حقيقتها دون تزيين، وموت قلوبنا صير عيوننا حولاء فأرانا الحلال حراماً والحرام حلالاً.
قال واعظ الدنيا في زمانه أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي:" من الحرام يتولد عمى البصيرة وظلام السريرة، فاكسب مالاً حلالاً، وأنفق في قصد واجتنب الحرام في أهله، ولا تجالسهم، ولا تأكل طعامهم، ولا تصحب من كسبه من الحرام إن كنت صادقاً في وعدك، ولا تضيفن أحداً على الحرام فيأكله هو وتحاسب أنت عليه، ولا تعنه أيضاً على طلبه فإن المعين شريك، واعلم أنما يتقبل الله من الأعمال من أكل الحلال" (٢)

_____
(١) كتاب مجابي الدعوة ص ٤٤،٤٥ – أبو بكر بن أبي الدنيا – ط. مؤسسة الرسالة
(٢) بحر الدموع ص ١٨٠ – ابن الجوزي – ط. دار الصحابة

وأشكال الحرام كثيرة منها: أكل الربا والرشوة والاختلاس والغصب والغش، والاتجار في المحرمات وأكل مال اليتيم والقمار، وغير ذلك من صور أكل أموال الناس بالباطل. أعاذنا الله وإياكم من أكل الحرام ليس فقط لنكون مجابي الدعوات، لكن لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا في كلمات قصار وقعها مخيف وجرسها عنيف أن: "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به" (١)

تخير وقت الطلب:
إن كان من توفيق الله لك أن يقيمك بين يديه ويقذف فيك روح الإقبال عليه لتدعوه وتناجيه فإن كمال التوفيق يتمثل في معرفة الأوقات التي توزع فيها الأرباح بالجملة وتتنزل فيها البركات والرحمة، كيوم عرفة من أيام السنة، وشهر رمضان من بين الأشهر، ووقت السحر من ساعات الليل، كما يجاب الدعاء أيضاً بين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات المكتوبات وأثناء السجود، وعند صعود الإمام المنبر يوم الجمعة، وآخر ساعة من نهار ذلك اليوم، وأثناء شرب ماء زمزم، وعند سماع صوت الديك، وعند التحام الصفوف في القتال، وعند نزول الغيث.
عند التسليم
شكر واجب
قال أبو حامد الغزالي:
"ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر" (٢)

---

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم عن أبي بكر وأحمد والدارمي والحاكم عن جابر في ص ج ص رقم ٤٥١٩
(٢) إحياء علوم الدين (١٣٢/٤)

فإذا نفذت هذا المشروع وكنت من أصحابه فاستمسك بهذه النعمة وعض عليها بالنواجذ واحمد الله الذي استعملك في طاعته بينما حقت كلمته على غيرك فكان من العاصين، وأعزك بالقرب منه بينما طرد غيرك عن جنابه فكان من الغاوين، وخصك بفضله ورحمته والمحرومون كثير، فليلهج لسانك بشكر هذه النعمة ثم عضد شكر اللسان بشكر الجوارح فلا تستعملها في معصية وهي حديثة عهد بطاعة، بل أتبع الحسنة بمثلها وآنس الطاعة بأختها.
تحفة شوكانية :
عدد محمد بن على بن محمد الشوكانى علامات استجابة الدعاء وجاد لنا بذكرها فقال : "علامة استجابة الدعاء : الخشية والبكاء والقشعريرة ، وربما تحصل الرعدة والغشى والغيبة، ويكون عقيبه سكون القلب، وبرد الجأش وظهور النشاط باطنا والخفة ظاهرا حتى يظن الداعى أنه كان على كتفيه حملة ثقيلة فوضعها عنه ، وحينئذ . . لا يغفل عن التوجه والإقبال والصدقة والإفضال والحمد والابتهال، وأن يقول : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات"(١).
استراحة:
تزود ثم انطلق
} النفس والشيطان والهوى أعداؤكم فأعلنوا الحرب عليهم (وليجدوا فيكم غلظة) ولا تلقوا سلاحكم (حتى تضع الحرب أوزارها) ، ود أعداؤكم (لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)، ولا تقعد بكم الجراح عن المواصلة فإنها علامة المجاهدة، وحذار من المهادنة فإنها دليل الذل (ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون).
} تذكروا نعم الله عليكم (ولا تنسوا الفضل بينكم) وإذا التفتم إلى الدنيا (فلا تميلوا كل الميل) .. ألزموا نفوسكم حدودها، وقيدوا شرودها (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن)، وداوموا على النصح (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً).

---

(١) تحفة الذاكرين ص ٥٨ – محمد بن على بن محمد الشوكانى – ط دار الكتب العلمية .

} عقارب ساعتك عقارب .. تلدغ وقت ملئها بالذنوب وتأمن شرها عند ملئها بالطاعات، وتكون منها على حذر وقت الفراغ، عقرب الثواني يحذر من التواني، وعقرب الدقائق يشهد على الذنوب الدقائق، وعقرب الساعات كلما قطع في مشواره ساعة قطع من عمرك ساعة.
} هل سمعت قط عن عبد شهوة استمتع بخلوة؟ أو استأنس بطاعة؟ أو التذ بمناجاة؟ الشهوة مرأة ولمسها بدون حائل ينقض الوضوء. فكيف تصح بعدها الصلاة؟
} مثل من انشغل عن أداء الفرائض مثل من هش الذباب من على وجهه وترك الثعابين تحت أقدامه ليجد القبر قدامه، أو كمن سفك دم الحسين وسأل عن حكم دم البراغيث. أغثنا يا مغيث.
} إذا أجهدت نفسك بطاعة فأعطها راحة فإن الله تعالى قال: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)، إن كسلت عن قيام الليل فليس أقل من استحضار نيته، إن لم تطلق يدك للصدقة فاكففها عن الظلم، إن لم تشغل لسانك بالذكر فاحبسه عن الغيبة، إن لم تكن شمس هداية فليس أقل من قمر اهتداء، إذا لم تكن أبا عبيدة فلا تكن أباه(١)، وإذا لم تشبه مصعباً فلا تشبه أخاه(٢).. لك في المباح متسع فلماذا الحرام؟؟
} من عجيب الأمر أنك تقدم حسن الجوار لجيران سكن، وتؤذي جيراناً ليس بينك وبينهم حائل ولا جدار (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) إخواني .. لا تنفروا الحفظة منكم بكثرة ذنوبكم وقبيح فعلكم فإن الملائكة لا تطيق رائحة الذنوب.
} من الغريب أن الذي يخاف هو الذي يعمل، والذي يأمن هو الكسلان، الأول وسامه: (وقلوبهم وجلة) والثاني عاره: (زين له سوء عمله فرآه حسناً) وعند شم الرائحة يبين الفرق . واعجباً .. خاف عمر النفاق وهو المبشر بالجنة، وأمنه ابن أبي وقد حجز مكانه مقدماً في الدرك الأسفل من النار !!

---

(١) أصر أبوه على كفره وحارب النبى والمسلمين فقتله ابنه أبو عبيدة فى غزوة

} كان السلف يوصون: اتخذ صاحباً يحصي عليك، فبدّل الخلف وقالوا : انصحوا غيرنا وارحلوا عن هنا، والنتيجة: تراكم العيوب واتساع الخروق وغرق السفينة، كانت المعصية عندهم شذوذاً وأصبحت عندنا قاعدة، ولا يجمعنا بهم سوى الوضوح فبقعة سوداء في الثوب الأبيض كبقعة بيضاء في الثوب الأسود.
} إذا أعجبتك البضاعة فاشتر، وإن راقت لك الصحبة فالحق بها، فإن تأخرت عن سوق أرباحنا حتى قالوا: تخلف فلان قلنا: إن علم الله فيه خيراً ألحقه بنا وإن يك غير ذلك فقد أراحنا الله منه، ثم أوصيناك بقراءة الفاضحة (١) قبل سماع أعذارك عند الرجوع.
} إذا أظلم قلبك بذنب تسلل إليه شيطان دون أن تلمحه، وإذا أضاء بطاعة توارى لأن السارق لا يظهر في الليلة المقمرة، إذا سرق شيطانك شيئاً من إيمانك فأعد نفسك غدا لتمثل للمساءلة فأنت شريكه في الجريمة.
} كل إنسان يرى في منامه الأحوال التي ألفها سائر يومه، فإن قضى يومه في التجارة رأى في منامه أحوال التجارة والتجار، وإن قضى يومه في العلم رأى منامه أحوال العلماء والمتعلمين، وسكرات الموت تشبه النوم فطول إلف المعصية يفرض تذكرها عند الموت والتعلق بها، فإن قبضت روحه هذه الساعة ختم له بسوء، وكذلك الأمر بالنسبة للطاعة سواء بسواء، فحدد لنفسك نوع أحلامك من الآن أو بالأحرى نوع خاتمتك.
} يا من كلما نقص أجله زاد كسله، وكلما قرب من القبور قوى عنده الفتور، اسمع يا مصاب لو فقدت أحد أقاربك وشيعته إلى قبره لعمّك الحزن وذرفت عليه الدموع، وأنت تفقد كل يوم طاعة، وتُشيع كل ساعة أكواماً من الأجر والثواب، فأين البكاء يا صاحب المصيبة؟ وأين الوجيعة يا صاحب الفجيعة ؟!

---

(١) اسم من أسماء سورة التوبة وسميت بذلك لأنها فضحت المنافقين

} لو سافرت سفراً ولم ترجع منه بربح لبكيت فوات أرباحك وضياع أوقاتك، ورحلتك في صفحات هذا الكتاب سفر إن لم ترجع منه بربح فابك ثواباً ضاع منك وجنة أوشكت أن تفلت من يديك، إن م يكن في الأسفار ربح فمن الحمق تكبد مشاقها، إن لم تنفعك كلمات الكتاب فلماذا أنفقت فيه وقتك ومالك؟
} جامع العلم والعمل كمتحدث الفصحى في قريش، وجامع العلم طارح العمل كالأعجمي يملي على العربي لا العربي يكتب ولا الأعجمي يبين، وما لا يسجل في الكتاب لا يوزن في الميزان.

} المسوّف مرعاد مبراق بغير مطر، قعقعة بلا طحن، جعجعة بلا عمل، فلو ارتقى سلم عزيمة لخرج من مضيق الأقوال إلى ساحات الأفعال (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم)
} ليس العجب في اشتياق بشر إلى الجنة لكن العجب كل العجب في اشتياق الجنة إلى بشر، أناس سمت أرواحهم وزكت سرائرهم حتى صاروا وكأنهم جزء من الجنة هبط إلى الأرض فلا تسكن الجنة ولا تقر إلا أن يرجع الفرع إلى الأصل لأن ألذ الأشواق ما كان بالتبادل (ثلاثة تشتاق لهم الجنة : علي وسلمان وعمار).
} إذا انتفعت بالكتاب وعملت بما جاء فيه فهذا علامة الحياة، وإلا فأعطه لمن فيه الرمق، ولا تمسكه عندك إلى أن يعلوه التراب. ألم تقرأ (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) .. يا أخانا .. ليس من شيم الكرام إمساك الخير عن الجيران (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا).

مشروع ٥

دقائق الليل غالية

وقفة إيمانية

سل المجاهدون خنجر الخوف فذبحوا به كبش الكسل، ففزع النوم وطار، ودوى في أسماعهم صوت الحق: هل من داع فلبوا النداء واستنشقت أنوفهم عبير الجنة حملته رياح الأسحار، فاشتد الشوق وقوى العزم ونصبت الأقدام وهطلت الدموع إلى أن انتهى زمن الزيارة وحان وقت الفراق وآذن الأنس بالرحيل .. طلع الفجر.

قبل التنفيذ

لأنه مهم

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فاته ورده من قيام الليل قضاه نهاراً فصلى اثنتي عشرة ركعة.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يترك قيام الليل في صحة أو مرض فإن مرض أو كسل صلى قاعداً

وكان صلى الله عليه وسلم يوقظ أهله ليشهدوا هذا الخير فيمر على ابنته فاطمة وزوجها علي رضي الله عنهما ويطرق بابهما ليلاً ويتعجب من إيثارهما النوم على القيام قائلاً لهما: ألا تصليان ؟

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع الصارخ وثب، ليصرخ هو بدوره في الناس يترجم صرخة الديك إلى لغتهم قائلاً: أيها الناس جاءت الراجفة تتبعها الرادفة.. جاءكم الموت بما فيه

أرباح المشروع:

كان أبو الحسن سري بن المفلس السقطي يقول: "رأيت الفوائد ترد في ظلم الليل" (١) ومن هذه الفوائد التي رآها سريّ:

دخول الجنة:

أوصى النبي صلى الله عليه وسلم أبا هريرة قائلاً له: "أطب الكلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام" (٢)

وفي وصف تفصيلي للغرف المعدة لاستقبال رهبان الليل يقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام" (٣)

أفضل أنواع الصلاة:

_____

(١) لطائف المعارف ص ١٠٩

(٢) رواه ابن حبان وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ١٠١٩ و الصحيحة رقم ٥٦٩

(٣) رواه أحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب عن أبي مالك الأشعري والترمذي عن علي كما في ص ج ص رقم ١٢٣

وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم "أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل" (١)
وصلاة الليل أفضل من صلاة النهار. عقد المقارنة بينهما عبد الله بن مسعود ثم أخبرنا بما وصل إليه

قائلاً : "فضل صلاة الليل على النهار كفضل صدقة السر على العلن" (٢) بل يذهب عمرو بن العاص إلى أن "ركعة بالليل خير من عشر بالنهار" (٣)وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص

نيل حب الله

يقول النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل ،إما أن ينصره الله ويكفيه فيقول انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟ والذي كان له امرأة حسنة وفراش ليّن حسن فيقوم من الليل فيقول يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم صحوا فقام من السحر في ضراء وسراء" (٤) فانظر إلى هذه البشارة النبوية اثنان من الذين يضحك الله إليهم من قوام الليل تركوا النساء والمائدة ليرتلوا النساء والمائدة، وحطمت أرواحهم أسوار الجسد لتحلق عالياً مع الملائكة السيارة حول العرش في إخاء إيماني بديع وسمو روحاني رفيع، فأجسادهم بشرية، وأرواحهم ملائكية .. بعثوها رسائل إلى الله في الخفاء مدادها الدموع وسائقها الخشوع فأتاهم الربح سريعاً من رب كريم عظيم الأفضال: "يحبهم الله"

رحمة منزلة

_____

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة والترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ١١١٦

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٢٢٦ وأخرجه أبو نعيم في الحلية ورمز له الطبراني بالحسن

(٣) لطائف المعارف ص ٩٣

(٤) رواه الطبراني في الكبير وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٦٢٥

قال النبي صلى الله عليه وسلم "رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء" (١)

قال المناوي: فقوله رحم الله رجلاً تنبيه للأمة بمنزلة رش الماء على الوجه لإيقاظ النائم، وذلك أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لما قال ما قال بالتهجد من الكرامة أراد أن يحصل لأمته حظ من ذلك وحثهم عليه عادلاً عن صيغة الأمر للتلطف فهل أحسست ببرد الماء الذي نثره رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهك أم أن نوم أصحاب الكهف راق في عينيك فغرقت فيه؟

عقد زواج

إذا قام المتهجد إلى تهجده فقد قام إلى مخطوبته، فإذا دخل إلى الصلاة فقد شرع في إعداد المهر، فإذا فرغ فقد استوفاه، ولا يزال في شوق إلى إتمام العقد حتى يقترب الموعد ويأذن الله، وعندها يلذ اللقاء ويطيب العناق على فرش بطائنها من إستبرق ولسان المفهم يقول: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) }الرحمن : ٦٠{

نام أبو سليمان الداراني فأيقظته حوراء وقالت: "يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك في الخدور منذ خمسمائة عام" (٢) ويحكى عن مالك بن دينار تجربته قائلاً: سهرت ليلة عن وردي ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون في يدها رقعة فقالت لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت نعم، فدفعت إلى رقعة فإذا فيها:

أألهتك اللذائذ والأماني ... ... عن البيض الأوانس في الجنان

تعيش مخلداً لا موت فيه ... ... وتلهو في الجنان مع الحسان

تنبه من منامك إن خيراً ... ... من النوم التهجد بالقُرَانِ

وقاية من النار:

_____

(١) فيض القدير (٢٥،٢٦/٤)

(٢) لطائف المعارف ص ١١٠

عن عبد الله بن عمر: " كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت غلاماً شاباً وكنت أبيت في المسجد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار. قال: فلقينا ملك آخر فقال لي لم تراع، فقصصتها على حفصة فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً ".
قال القرطبي: "إنما فسر الشارع من رؤيا عبد الله ما هو ممدوح لأنه عرض على النار ثم عوفي منها، وقيل: لا روع عليك، وذلك لصلاحه غير أنه لم يكن يقوم من الليل، فحصل لعبد الله من ذلك تنبيه على أن قيام الليل مما تتقى به النار والدنو منها فلذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك" (١)
فائدة خماسية:

_____
(١) فتح الباري (١٠/٣)

قيام الليل شعار الصالحين، والعلامة المسجلة لهم يعرفون بها ويميزون، هو عنوان أخوتهم الإيمانية والحبل الوثيق الذي يصلهم جيلاً بعد جيل هو روضتهم الزاهرة وفردوسهم المنشود وديدنهم المتفرد على مر العصور والأزمان. امتطوا صهوته ليكون مركب الوصول بسهم الوجل من ذنوب اقترفوها أو آثام ولغوا فيها فحصدوا ما زرعوا (تكفيراً للسيئات)، وأورثهم الحياء من زلل يعرض أو معصية تلوح فالعين التي بكت من خشية الله كيف تلتذ بنظر محرم، واللسان الذي رتل وسبح واستغفر كيف يتحول لساناً يغتاب ويكذب وينم، والجسد الذي هوى ساجداً لله كيف يهوي ساجداً لملذاته وشهواته، ويظل هذا الحياء ينمو إلى أن يصير إرادة نافذة وسلطة قادرة تشكل في مجملها (منهاة عن الإثم)، وبتكفير ما مضى والعصمة فيما بقي تبرأ الروح وإذا برئت الروح انتقلت العدوى إلى الجسد فبرء كما برء جاره من قبل، أو إن شئت قل: لما برئت الروح كرم الله الجسد الذي يحملها لأجلها وعافاه لطهرها، فلم يصبه داء ولم يمسسه ضر ومطردة للداء عن الجسد).
أجمل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفوائد في قوله: " عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله عز وجل، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد" (١)
جبر الكسر:
قيام الليل يجبر كسر الفريضة ويستدرك التقصير فيها، وهو لا بد حاصل من تضييع خشوع أو سهو وتأخير وقت وغير ذلك مما لا يسلم منه أحد. قال صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضة قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله بعد ذلك" (٢)

_____
(١) رواه الترمذي والبهقي والحاكم في المستدرك عن بلال وابن عساكر عن أبي الدرداء كما في ص ج ص رقم ٣٩٥٨
(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٢٠٢٠

اختر اليقظة أو القنوت أو القناطير
رحمات الله قريبة قريبة في متناول يدك تطلب إليك قطفها، قيام الليل بعشر آيات فحسب كاف ليخلع عنك ثوب الغفلة، فإن واصلت إلى المائة ألبسك ثوب القانتين، فإن ذقت حلاوة الوصال فأتممت الألف

خلع عليك خلع المقنطرين. سبحانه ما أعظم كرمه وما أسخى جوده ألا فتعرضوا لكرمه وجوده.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من قام بعشر آيات لم يكن من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين" (١)
والمقنطرون هم من ينالون أجورهم بالقناطير، وخشية أن يتقال أحد المقنطرين قدر قنطاره أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بقيمة القنطار الواحد فقال: "والقنطار خير من الدنيا وما فيها" (٢)
ولا يخفى ما في هذا الحديث من حث على التنافس بين المؤمنين والاستكثار من الطاعات عن طريق بيان جزاء كل واحد، وكل يبذل على قدر همته ويؤجر على قدر مشقته، فأي الفرق الثلاث أنت؟
ذكر الله كثيراً
قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات" (٣)
ركعتان خفيفتان في جوف الليل تعدل ذكراً كثيراً يستغرق وقتاً طويلاً، والفطن من عرف كيف ينال أجراً بأقل جهد.
الجائزة الخفية:
قال عز وجل: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون" }السجدة: ١٦، ١٧{
قال مجاهد والحسن: "تتجافى جنوبهم يعني قيام الليل" (٤)

_____
(١) رواه أبو داود وابن حبان عن ابن عمر وكما في ص ج ص رقم ٦٤٣٠ والصحيحة رقم ٦٤٢
(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٦٣٤
(٣) رواه أبو داود عن أبي سعد وأبو هريرة كما في ص ج ص رقم ٦٠٣٠ وصحيح أبي داود رقم ١١٨٢
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٦٤/٦) – أبي الفداء ابن كثير – ط. دار الشعب

تأمل صاحب القلم السيال والسحر الحلال ابن قيم الجوزية في هذه الآية فقال: تأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلم نفس، وكيف قابل قلقهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة" (١)
بعد أن يتسلم كل جائزته في الجنة ويسكن درجته التي أعد الله له، تبقى الجائزة الكبرى مدخرة لهذه الثلة المباركة، مصونة لا تخدشها عين، مكنونة لا تعبث بها يد، خفية لا يطلع عليها أحد، وإذا كان نعيم الجنة الذي أعلنه لا يخطر على بال بشر فكيف بنعيمها الذي أخفاه؟ وما أعظم كرمه إذ أخفى كرمه وما ألطف جوده إذ أخفى جوده إذ النفس دوماً تواقة إلى سبر أغوار ما أخفي عنها تطمح في نيله وتسعى في أثره وتستفرغ الجهد في تحصيله، فكأنه عز وجل بإخفائه جزاء القائمين أعان على سلوك طريقهم وأمدنا بالزاد لنلحق بهم ونفخ فينا نفخة من عزمهم.
الشروط الجزائية
تسهيلات المشروع:
نم قيلولتك:
هذه فرصة ثمينة وغنيمة دفينة فلئن اشتريت ساعة من ساعات الليل الغالية التي تتنزل فيها الملائكة بساعة من ساعات النهار التي تنشط فيها الشياطين تغوي إنك إذن من الرابحين.
قال النبي صلى الله عليه وسلم "قيلوا فإن الشياطين لا تقيل" (٢)
فلا تجعل الشيطان قدوة لك فتلعب وتصخب بالنهار، فتآخى نفراً مر عليهم الحسن البصري في السوق فرأى صخبهم ولغطهم فقال: " أما يقيل هؤلاء ؟! قالوا: لا، قال: إني لأرى ليلهم ليل سوء" (٣)
أقل من طعامك

_____
(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٢٧٨ – ابن قيم الجوزية – ط. م المدني
(٢) رواه أبو نعيم في الطب والطبراني في الأوسط عن أنس وحسنه الأباني كما في ص ج ص رقم ٤٣٠٧ والسلسة رقم ٢٦٤٧
(٣) رهبان الليل ٤٦١٢ – د سيد العفاني – ط. مكتبة ابن تيمية

جاء رجل إلى ابن سيرين فقال له: علمني العبادة، فقال ابن سيرين: أخبرني عن نفسك كيف تأكل؟ قال: آكل حتى أشبع، فقال: ذلك أكل البهائم، ثم قال: كيف تشرب؟ قال: أشرب حتى أروى. قال: ذلك شرب الأنعام. اذهب فتعلم كيف الأكل والشرب ثم جئ أعلمك العبادة.

فإذا تعلمت الأكل والشرب توصلت إلى النتيجة التي توصل إليها مسعر بن كدام بعد طول عناء ولم يبخل بها عليك فقال:

وجدت الجوع يطرحه رغيف ... ... وملء الكف من ماء الفرات

وقل الطعم عون للمصلي ... ... وكثر الطعم عون للسبات

وليس المراد بالجوع المقعد عن الحركة الذي يورث العجز والكسل فهذا جوع استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم منه، وإنما المراد قلة الطعام بحيث توافق سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي أخبرنا بها فقال:

"بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه" (١)

وها هو سفيان الثوري يخاطب عشاق السحر بصيغة الأمر قائلاً: " عليكم بقلة الطعام تملكوا قيام الليل" (٢) فإن خالف سفيان وصيته ووقع فيما حذّرَنا منه أدب نفسه بطريقته الخاصة حيث شبع ليلة فقال: "إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله" فقام تلك الليلة حتى أصبح (٣)

خشن فراشك:

وصف لنا عمر بن الخطاب فراش النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل عليه فقال: "فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير فجلست، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه" (٤)

ووصفت لنا أم المؤمنين عائشة وسادته صلى الله عليه وسلم فقالت: "كانت وسادته التي ينام عليها بالليل من أدم حشوها ليف" (٥)

_____

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاطم عن المقدام بن معد يكرب كما في ص ج ص رقم ٥٥٥٠

(٢) تنبيه المغترين ص ٣٥

(٣) إحياء علوم الدين (٤١٩/١، ٤٢٠)

(٤) رواه مسلم عن عمر رقم ١٤٧٩

(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمدي وابن ماجة عن عائة كما في ص ج ص رقم ٤٧١٤

وما كان يفعل هذا إلا ليكون أيسر له في الاستيقاظ وأنشط له في القيام، بفعل هذا وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو الذي كان إذا نامت عيناً لم ينم قلبه، ويقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ويسجد حتى يظن أصحابه أنه قبض، ويلح على ربه في دعائه حتى يسقط رداؤه عن منكبيه، وما ترى أنه فعل ما فعل في تخشين فراشه إلا ليعلم أمته من بعده وينصحها بلسان حاله كما نصحها لسان مقاله.

وليس معنى هذا أننا نطلب منك أن تترك فراشك كل ليلة لتفترش الأرض أو أننا نحرم ما أحل الله لك، بل المعنى ما قاله المناوي في نصيحته القيمة" " الأولى لمن غلبه الكسل والميل للدعة والترفه أن لا يبالغ في حشو الفراش ، لأنه سبب لكثرة النوم والغفلة، والشغل عن مهمات الخيرات" (١)

يا نائماً عن قيام الليل.. يا غارقاً في ثنايا السيل ضج الليل من كثرة منامك، واشتكى الفراش من كثرة رقادك وتعجبت الحور من قسوة جفائك، وبكى الحفاظ من فوات أرباحك، فأحب من يحبك، واشتغل بمن يشتاق إليك، وقف بين يدي مولاك لحظة عساك تفلح ففي لحظة واحدة أفلح السحرة وأحرزوا الدرجات العلى.

رفيق الخير ينبهك

عن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أباه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت

النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله، إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شيئاً، ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً (٢)
قال الطبري معلقاً" لولا علم النبي صلى الله عليه وسلم من عظم الصلاة في الليل ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكناً، لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون امتثالاً لقوله تعالى: وأمر أهلك بالصلاة" (٣)

_____
(١) فيض القدير (١٨٠/٥)
(٢) رواه الشيخان عن الحسن كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ٤٤٣
(٣) فتح الباري (١٥/٣)

لذا نقول: اجعل لك رفيق خير يعينك.. إذا سقطت في بئر غفلة فناد بأعلى صوتك: واغوثاه واغوثاه فربما جاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فإذا وجدته فتعلق به تنج، وإلا فكم غرق في الآبار نفر سكتوا على طلب الغوث.
لا تعصه يُقِمْك.
قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواءً ، فقال له: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف (١)
ويثني القول وارث من ورثة النبوة هو الفضيل بن عياض فيقول: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل، كبلتك خطيئتك" (٢) ويأتيك بالثالثة علم القيام ورمز الصيام الحسن البصري فيقول: ما ترك أحد قيام ليلة إلا بذنب أذنبه، تفقدوا أنفسكم كل ليلة عند الغروب وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل" (٣)
كل محروم معاقب وكل محروم معاقب، والمعاقبة درجات لكن أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة (٤)
يا معشر القوام اشفعوا في النوام . يا أحياء القلوب ترحموا على الأموات .. ماذا وجد من فقد قيام الليل؟ وماذا وجد من فقده؟ لا نور يشبه نور المتهجدين .. خلوا بالرحمن فكساهم من نوره، ولا ظلمة تشبه ظلمة الراقدين، نفد عندهم زاد الليل فانطفأ سراجهم بالنهار، فإذا وجوههم مظلمة.
يا حسنهم والليل قد جنهم ... ... ونورهم يفوق نور الأنجم
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت ... ... وخلع الغفران خير القسم
اعرف قدر السلعة يهن عليك دفع الثمن:
كان يزيد بن هارون يقول: "نظرت في قيام الليل فإذا الحارس يحرس الليلة كلها بدانقين، أو يطلب أحدكم الجنة بسهر ليلة واحدة، بعبادة لعلها لا تساوي دانقين وربما من بها على ربه" (٥)

_____
(١) تنبيه المغترين ص ٥٣
(٢) الحلية (٩١/٨)
(٣) تنبيه المغترين ص ٣٤
(٤) صيد الخاطر ص ١٠ – ابن الجوزي – ط. دار الفكر
(٥) تنبيه المغترين ص ١٠٩

واعجب لمن باع قيام الليل بفضل لقمة، وضحى بنسيم السحر في سبيل نومة، وأعلن انسحابه من نادي المجتهدين من أجل هجعة .. يا هذا لو بعت لحظة تهجد بعمر نوح في ملك سليمان لكنت من الخاسرين.

يا نفس ما هو إلا صبر أيام ... ... كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفس هبي إلى الفردوس عازمة ... وخل نوماً فإن العيش قدامي
واسمع إلى يحيى بن معاذ وهو يخبرك: " ما أمر الإنسان في هذه الدار ولو طال إلا كنفس واحد في جنب عيش الجنة، ومن ضيع نفساً واحداً يعيش به عيش الأبد: إنه والله من الخاسرين" (١)
علم السلف ذلك بل أيقنوا به، فهان عليهم لعلمهم أين المقصد، فالسوق حاديهم، والسهر راحتهم، والنصب لذتهم، والله وجهتهم، ولا راحة لأمثال هؤلاء إلا حين يحطون رحالهم في الجنة.
فاعرف قدر ما ضاع منك، وابك بكاء من يجري مقدار ما فاته، واجتهد في الاستدراك عساك تلحق بمن بسقط، وتصل إلى مرادك بعد سلوك مسلك اللبلابة في الوصول فإنه (لما عشقت اللبلابة الشجر تسلقت طلب الاعناق الأعناق ولثم الخدود، فقيل لها: مع الكثافة لا يمكن فرصة بالتحول فالتفت فالتفت" (٢)
اعرف سيرة السلف:
إذا بزغت شمس السلف غارت نجوم الخلف، سماع أخبارهم حياة، دعوا إلى الخير في حياتهم بألسنتهم وأحوالهم، فلما ماتوا سكنت الألسنة وبقيت الأحوال تتكلم فكانوا دعاة إلى الله أحياء وأمواتاً، لا تزال شجرتهم ورافة الظلال غزيرة الثمار عظيمة الفوائد تؤتي أكلها إلى الآن: تؤنس من استوحش، وتهدي من ضل، وتثبت من اضطرب، ويأوي إلى ظلها كل ظمآن.
كان السري السقطي إذا جن عليه الليل دافع أوله، ثم دافع ثم دافع فإذا غلبه الأمر أخذ في النحيب والبكاء (٣)

_____
(١) السابق ص ٤٦
(٢) المدهش ص ٣٢٩
(٣) حلية الأولياء (١٢٦/٣)

وكان علي والحسن ابنا صالح بن يحيى وأمهما قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء فكان علي يقوم الثلث ثم ينام، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام، وتقوم أمهما الثلث، ثم ماتت أمهما، فجزءا الليل بينهما فكانا يقومان به حتى الصباح، ثم مات علي فقام الحسن بهن فكان يقال: الحسن حبة الوادي (١)
ولما سألت بنت نجار منصور بن المعتمر أباها وقالت: يا أبت أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة؟ قال: يا بنية ذاك منصور كان يقوم الليل(٢). أى يظل منتصبا كالخشبة من طول قيامه.
ولا ندري بأيهما نعجب برياح القيسي أم بامرأته وإليك الخبر: تزوج رياح القيسي امرأة فبنى بها فلما كان الليل نام ليختبرها فقامت ربع الليل ثم نادته: قم يا رياح، فقال: أقوم فقامت الربع الثاني ثم نادته فقالت قم يا رياح، فقال أقوم فلم يقم فقامت الربع الثالث ثم نادته فقالت: قم يا رياح، فقال: أقوم، فقالت مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم .. ليت شعري من غرني بك يا رياح. قال: وقامت الربع الباقي (٣)
ما اكتسب السحر عطره الخاص إلا من أنفاسهم، وما نوارة شمس الهجير عند الغروب إلا خجلاً من نور هم، وما غارت النجوم ليلاً إلا طمعاً في قربهم، وما تنزل الله بجلاله إلى سمائه الدنيا في ثلث الليل الآخر إلا من أجلهم، فأكرم بهم أكرم بهم أكرم بهم.
اصدق الله يصدقك
إذا صدقت نيتك وصحَّ عزمك وطال شوقك إلى الوقوف بين يدي ربك فتأكد أن أي شيء سيوقظك: اضطراب ريح أو عبث فأرة أو بكاء طفل فإن لم يكن شيئاً من هذا فأرق لا تعرف له سبباً.

_____
(١) رهبان الليل (٤٠١/١)
(٢) سير أعلام النبلاء (٤٠٣/٥) – شمس الدين الذهبي – ط. مؤسسة الرسالة
(٣) صفة الصفوة (٢٧/٤)

فإن حدث ولم تقم بعد تصحيح النية والعزم والأخذ بالأسباب فلا تحزن فإنما الله قد تصدق عليك. قال النبي صلى الله عليه وسلم من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه" (١)
فوا عجباً لنائم أجره أعظم من قائم، ولمفطر أزكى عند الله من صائم، ولميت على فراشه بلغ منزلة ما بلغها ميت على أرض القتال. قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين (٢)
فإن فغرت فاك دهشة مما قرأت وأردت ترجمة لما أقول تركنا المجال لابن القيم، فهو أقدر من يقوم بهذا الواجب قال رحمه الله:
فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجرد القصد وصحة النية العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير والتقدم، والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل" (٣)
تأدب
تأدب بآداب النوم وارجع إليها في مشروع (الصلاة خير من النوم)
عند التسليم
قاعدة السر والعلانية
إذا فرغت من عملك الصالح فاستودعه خزانة الأسرار وضع عليه قفل الإخلاص فإنك لا تأمن الشيطان على عملك لعله سطا عليه فأخرجه من ديوان السر إلى ديوان العلن، ولعله زاد في الكيد لك حتى أخرجه من ديوان العلن إلى ديوان الرياء، فيسجل العمل في السيئات وقد ظننت أنه في الحسنات سجل.

_____
(١) رواه النسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن أبي الدرداء وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٥٩٤١
(٢) الفوائد ص ١٨٦
(٣) السابق ص ١٨٦، ١٨٧

فإن قصدت بإظهار علمك أن يقتدي بك الناس في غياب القدوات فعليك قبل أن تقرأ قاعدة السر والعلانية التي استنبطها أبو حامد الغزالي من منخولات تجارية وقدمها لك على طبق من ذهب موصياً كل مشترك: " أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه الإظهار بغير الاقتداء، وإنما شهوته التعجل بالعمل وبكونه يقتدي به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفاً فنظر إلى جماع من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، وال؟ بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء" (١)
مشروع ٦
الصبر مفتاح الفرج
وقفة إيمانية
لما صابر الورد الألم، وتحمل مجاورة الشوك ووخز الإبر استحق أن يتصدر مجالس الأمراء ويصبح رمز الحسن والبهاء ولا تجد هدية أرق من الورد، ولما آثر الحشيش السلامة صار مرتع الحمير وعلف البهائم ورخص وديس بالأقدام حتى غدا رمز المهانة.
قبل التنفيذ
أرباح المشروع:
ما مثل البلاء إلا كمثل الضيف ينزل عليك، فإن رحبت بقدومه وتفقدت حوائجه مقدماً له قرة الصبر دون أن يشكو اللسان ضجراً، أو ينقلب القلب تسخطاً، فيا لذة مدائحك على لسان الملائكة، ويا فرحة تسجيل وصفك بالكرم والجود في صحفهم، وما أصدق قول القائل: الصبر مثل اسمه في كل نائبة لكن عواقبه أحلى من العسل، ومن هذه العواقب الحلوة هذه الأرباح:

صبر يستوجب الحب:

_____

(١) إحياء علوم الدين ٣٣٥/٣

قال تعالى "والله يحب الصابرين" وهل رأيت حبيباً يعذب حبيبة أو يقطع وده أو يؤثر هجره؟ إنما هو سبحانه رؤوف رحيم بعباده المؤمنين يبتليهم ليضع عنهم الأوزار ويصرف عنهم عذاب النار. يضعهم في اختبار لحظة واحدة. وما الدنيا إلا لحظة واحدة. ليستحقوا به إن هم اجتازوه الخلد في دار الخلد والنعيم في دار النعيم.

ولذا كان الصبر عطاء – وأي عطاء – لا يناله إلا من حاز الرضا وحظي بالقرب قال صلى الله عليه وسلم "وما أعطي أحد عطاء خيراً أو أوسع من الصبر" (١)

تتلمذ الرافعي في هذه المدرسة – مدرسة النبوة – حتى نضجت كلماته بمعانيه لذا عجب غاية العجب من نفر ارتدوا ثياب الإيمان حتى إذا نزلت بهم نازلة أو ألمت بهم ملمة ارتدوا ثياب التشكي ورفعوا راية العصيان فقال مستغرباً:

وأي شيء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاء مال غير أنه لا يوضع في الكيس بل في الجسم" (٢)

اللا محدود في عالم الثواب

سبحانه سبحانه غارس شجرة الكرم في قلوب الكرماء، وخالق الجود في أكف الأسخياء فكل كرم من كرمه، وكل بذل من جوده.

من فيوضات كرمه أنه لما التزم الصالحون أمره فصبروا كافأهم بمكافأة: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) }النحل: ٩٦{ فأغدق عليهم ثوابه وأجزل لهم عطاءه حتى جازى الواحد منهم على أعماله الصالحة بثواب أفضلها، وإن تفاوتت بضاعته وتغير منسوب الإيمان في قلبه من وقت لآخر، ومن فيوضات كرمه أن كل أجير أجره بحساب أما أجر الصابرين فبغير حساب قال تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) }الزمر: ١٠{

_____

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد كما في ر ص رقم ٢٧

(٢) وحي القلم (٩٢/٢) – مصطفى صادق الرافعي – ط. دار المعارف

ترى ما قدر (بغير حساب) في مقاييس الله؟ إن العقل البشري ليتيه في تصور هذا الثواب، ويقف عاجزاً عن تصور ما لا طاقة له به حتى يصل إلى أن النعيم الدنيوي من يوم خلق الله الدنيا إلى يوم فنائها لا يساوي ذرة رمل في صحراء (بغير حساب) ومن فيوضات كرمه أنه كلما صعب عليك البلاء أجزل لك العطاء. قال النبي صلى الله عليه وسلم "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء" (١)

معية تورث السكينة:

قال تعالى: "والله مع الصابرين"

وهذه المعية المذكورة في الآية ليس المراد منها معية الإحاطة والعلم فحسب، بل معية التأييد والنصرة والمنعة والغلبة، المعية التي تورث صاحبها سكينة النفس وطمأنينة القلب وراحة البال والثقة الغامرة في تأييد ذي العزة والجبروت والقوة الملكوت. ولما كانت معية الله متحققة للصابر بمقتضى هذه الآية كان النصر حليفه ولا شك، فالصبر والنصر رفيقا درب وفرعا غصن وريعا لبان. قال صلى الله عليه وسلم "واعلم أن النصر مع الصبر"(٢)

وداعاً دنيا السيئات:

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يصيبه أذى : شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها" (٣)

فإذا صب الله البلاء على عبده صبا فصبر فإنما أراد به خيراً كثيراً وفوزاً عظيماً، قال النبي صلى الله

عليه وسلم " ما يزال البلاء بالمؤن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة (٤)

(١) رواه الترمذي وابن ماجة عن أنس وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٢١١٠
(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس
(٣) متفق عيه عن ابن مسعود كما في ر ص رقم ٣٩
(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٥٨١٥

سمع الفضيل هذا الحديث فخرج منه إلى (أن الله عز وجل ليتعاهد بدن المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير(١) وعلى هذا يرى المؤمن المحنة منحة، والبلية هدية والألم دواء مراً لا يحصل الشفاء إلا به، وبها وحده يعود (الفقر باباً من الزهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والزن نوعاً من الرجاء) (٢)
بل يرى المحنة تزرع فيه من الفضائل ما لم يكن يعلم، وتلقي في روعه من الأخلاق ما كان هاجراً، فينمو خَلْقاً آخر. قال الشعبي: " ما أشبه النكبة بالبيضة تحسب سجناً لما فيها وهي تحوطه وتربيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تنقف البيضة فيخرج خلقاً آخر" (٣)
ولا تنمو الفضائل التي تزرعها المحنة في المؤمن إلا أن تسقى بما ء الصبر، أما محنة صاحبها جزع وبلية لحقها ضجر، فإنها تقلع ولا تزرع.. تضر ولا تنفع .. تفني ولا تذر.
استحقاق الإمامة في الدين:
قال تعالى "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا" }السجدة: { فجعل الله سبحانه الصبر للإمامة في الدين، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة. كان جبل صبر يتحرك، بل لو كان الصبر رجلاً لغار من النبي صلى الله عليه وسلم. صبر على الفقر والجوع حتى يربط على بطنه الحجر والحجرين، وصبر على فقد الزوج والولد، وصبر على إيذاء قومه له سباً وضرباً، وصبر على إخراجه من بلده، وصبر على فقد أصحابه أمام عينيه والتمثيل بهم وهو ساكن، وصبر على قذفه في عرضه وأحب الخلق إليه عائشة رضي الله عنها، صبر على كل هذا وترك لنا صلى الله عليه وسلم هذه التركة ولكل من ورث فيها نصيب بحسب قربه منه، فعلى قدر صبرك تحدد درجة قرابتك.

(١) الإحياء (٤/)
(٢) وحي القلم (٩٤/٢)
(٣) السابق (١١٣/٢)

كان الإمام أحمد بن حنبل آية من آيات الله في الثبات على الحق والصبر على البلاء. أثناء محنة خلق القرآن حتى قيل: نصر الله هذا الدين بأبي بكر يوم الردة وبأحمد يوم المحنة، واستحق بهذا لصبر أن ينصب إماماً للعامة، ولئن حال بطش الظالمين دون ظهور ذلك في حياته فقد ظهر جلياً في مماته، إذ شيعه إلى قبره أربعة ملايين نفس وتوقفت عقارب الزمن آنذاك وسكنت عجلة الحياة في بغداد يومها، واستمرت الصلاة عليه من الفجر حتى مغيب الشمس، وعلا النواح والصراخ في أربع طوائف من الأمة: المسلمين واليهود والنصارى والمجوس، ولا غرو، فالإمام كان خيراً للبشرية جمعاء، وهذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة، ولم تكن جنازة الإمام جنازة ساقها مشيعوها إلى قبرها، بل موكب عرس زف فيه المحبون محبوبهم إلى الجنة المنتظرة له على شوق. فالمح آخر طريق الصبر تسلك أوله مطمئن النفس واثق الخطى وتصل إلى ما وصل إليه أحمد وإخوان أحمد.
النائحة الثكلى أصدق:
فمن الناس من لا يعبد الله إلا في المواسم، ولا تعرفه المحاريب إلا في الجمعات، فتنزل المحنة على أمثاله لتسوق الشارد عن الله إلى الله، ولترد الهارب منه إليه، ولترسم الطريق بوضوح إلى بيت الملك،

فإن رفع أكف الضراعة، ولزم مقام الرضا وارتدى ثياب الصبر أذن له بالدخول على مولاه، فيقف بين يديه مقراً بذنبه مقتنعاً بفقره، معترفاً بعجزه، ملحاً في مسألته، باعثاً دعاء قد خضبته الدموع، وعطره الأسف، وأنفذته الحاجة، وزينه الوجل، وعندها فقط تجوز عليه الصدقة (إنما الصدقات للفقراء).
علامة جد وخيرية

قال صلى الله عليه وسلم "إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة" (١)ولما كان الله يغار وغيرته أن تنتهك محارمه، أو تضيع حدوده فقد أوجب على الخائض فيها عقوبة ولابد، وهذه قد تكون في الدنيا فيتسلى عنها بغيرها ويخف وقعها، أو في الآخرة وهذه تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي إذ أسباب التسلي منقطعة، فإن تركك وأخرك فقد كرهك وأبغضك، وإن أخذك وعجلك فقد أحبك وقربك، وإذا كان أعظم نعيم الدنيا تمسحه غمسة في النار فهل يسمى هذا نعيماً ؟! وإذا كان أشد بؤس الدنيا تنسيه غمسة في الجنة فهل يسمى هذا بؤساً ؟!
الجنة:
قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى يقول: إذا أخذت كريمتي عبدي (عينيه) في الدنيا، لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة" (٢) وقال مخبراً عن ربه: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة" (٣)
ولربما كان ميزان حسناتك يوم القيامة لايثقل عن ميزان سيئاتك إلا أن يوضع فيه مثقال صبر صبرته فتستحق بذلك دخول الجنة
الشروط الجزائية:
ضياع الإيمان:
الصبر على الضراء مثله مثل الشكر على السراء سيماء يحتكرها المؤمنون. قال صلى الله عليه وسلم: " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له" (٤)

_____
(١) رواه الترمذي والحاكم عن أنس والطبراني عن عمار بن ياسر في ص ج ص رقم ٣٠٨
(٢) رواه الترمذي عن أنس كما في ص ج ص رقم ١٩٠٤
(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة كما في ر ص رقم ٣٣
(٤) رواه مسلم عن صهيب بن سنان كما في ر ص رقم ٢٨

وعلى هذا (من لم يكن على نعمته صابراً على بليته فقد تخلق بأخلاق الكافرين بل نقول: أو وصفت الإيمان بنزوى حينئذ عن قلبه ويكن على رأسه كالظلة حتى يراجع نفسه) (١)
ومن مظاهر انزواء الإيمان عن القلب الشكوى إلى غير الله، وهي ذنب عرفك عقوبته شقيق البلخي فقال " من شكا مصيبة إلى غير الله لم يجد حلاوة الطاعة" (٢)
فالصبر إذن روح الإيمان وكما أنه لا حياة للجسد بغير روح فكذلك لا حياة للإيمان بغير صبر. قال علي بن أبي طالب: " الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس مات الجسد" (٣)
وإذا رفع الصبر حل محله الجزع الذي تفقد مرارته طعم حقيقة الإيمان. نطق بهذا الصحابي الجليل عبادة بن الصامت في وصيه مودع أوصى بها ولده قبل موته فقال يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك (٤)
الرسوب في الامتحان
الدنيا دار ابتلاء ومن جهل هذا فقد نسي الغاية التي حلقه الله لها (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) ومن جزع ونفد صبره عند نزول البلاء فقد جنى على نفسه وكتب اسمه بيده في سجلات الخائبين.

(١) المختار من كنور السنة ص ١٤٤ – د. محمد عبد الله دراز – ط. دار الأنصار
(٢) سير أعلام النبلاء (٣١٥/٩)
(٣) قوت القلوب (٣٩٤/١)
(٤) سنن أبي داود (٢٢٥/٤) – ط. مصطفى محمد

هو الامتحان إذن أو التجربة بلغة لقمان الحكيم حين أوصى ابنه قائلاً: " يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء، فإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط" (١) وإذا نظر المؤمن إلى الدنيا من زاوية الابتلاء كان على حذر فيها من الخير والشر على السواء. قال العلامة الفيروز آبادي صاحب القاموس: "اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا. فصارت المنحة والمحنة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر. أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: بلينا الضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر، وقال علي رضي الله عنه: من وسع عليه في دنيا فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله، وقال تعالى: ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون" (٢)
ولعلمه باقتران الإيمان بالابتلاء قال الرافعي:
فمن آمن بالله فكأنما قال له: امتحني، وكيف تراك إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد : امتحني وارم بي حيث شئت، وإذا رمى بك فرجعت مثخناً بالجراح ونالك البتر والتشويه أتراها أوصافاً لمصائبك أم ثناء على شجاعتك ؟ (٣)
وتظهر قوة الإيمان في النكبات لا في الركعات، وعند الرزايا لا في الزوايا قال الحسن البصري: " استوى الناس في العافية فإذا نزل البلاء تباينوا" (٤)
الانهيار:

(١) إحياء علوم الدين (١٣٠/٤)
(٢) بصائر ذوي التمييز (٢٧٤/٢) – ط. شركة الإعلانات الشرقية
(٣) وحي القلم (٢/ ٩٢،٩٣)
(٤) صيد الخاطر ص ٢١٦

قال صلى الله عليه وسلم " مثل المؤمن كمثل الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا سكنت اعتدلت وكذلك المؤمن من يكفأ بالبلاء ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء (١) أو هي شجرة الصنوبر والدباء في لغة أبي الفرج ابن الجوزي الذي نقل هذا الحوار: شجرة الصنوبر تتم في ثلاثين سنة وشجرة الدباء تصعد في أسبوعين فتدرك الصنوبر، فتقول شجرة الدباء: إن الطريق التي قطعت في ثلاثين سنة قطعتها في أسبوعين فيقال لك شجرة ولي شجرة، فتجيبها: مهلاً إلى أن تهب ريح الخريف (٢)
تسهيلات المشروع:
لأن من لم يعمل بعلمه لم يزد ما معه، ولأن حامل المسك إذا كان مزكوماً لاحظ له فيما حمل، ولأن هذه الصفحات حجة لك أو عليك فقد قدمنا لك هذه التسهيلات سائلين المولى عز وجل أن يعينك على تنفيذها.
تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة: (٣)
من بذر بذرة طاعة في ظل رخاء استظل بشجرتها في هجير شدة، ومن قاسى حر مجاهدة في سراء وجد في قلبه برد يقين في ضراء.
شرح المناوي هذه الوصية النبوية فقال: (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك، وجعله لك من كل ضيق

مخرجاً، ومن كل هم فرجاً بما سلف من ذلك التعرف، كما وقع للثلاثة الذين آووا إلى الغار، فإذا تعرفت إليه في الرخاء والاختيار جازاك عليه عند الشدائد والاضطرار بمدد توفيقه وخفي لطفه كما أخبر تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام بقوله: (فلولا أنه كان من المسبحين) يعني قبل البلاء، بخلاف فرعون لما تنكر إلى ربه في حال رخائه لم ينفعه، اللجوء عند بلائه قال: (ءالئن وقد عصيت) (٤)

_____

(١) رواهالشيخان عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٥٨٤٣
(٢) اللطائف ص ٨٣ – ابن الجوزي – ط. دار الهجرة
(٣) رواه أحمد والطبراني وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن ابن عباس كما في ص ج ص رقم ٩٥٨
(٤) فيض القدير (٢٥١/٣)

ولنا رجعة مع الإمام أحمد الذي عرف الله في العافية فأيده الله وثبته ساعة الشدة، وانظر – حفظك الله – إليه : ضرب بالسياط ضرباً لو ضرب لفيل لهزِّه حتى لم يبق بين سرواله وقميصه سوى خيط لو انقطع لبانت عورة الإمام، وعندها انقطعت أسباب الأرض وحضرت أسباب السماء، وتمتم الإمام بكلمات في سره، وتوالى الضرب على الخيط واشتد .. واشتد .. وتعاقب الجلادون .. تسعة يضربه كل واحد سوطين ليسلم السوط إلى الذي يليه.. كل هذا والخيط لا ينقطع، وكان الحق بصلابته قد تجمع في هذا الخيط فانقلب خيطاً من حديد !! وستر الله إمامنا وحفظه، وظل الأمر لغزاً عند جلاده لا يجد له حلاً حتى قابل الإمام بعد أيام فسأله عن هذه الكلمات التي رددها فقال له الإمام: "قلت: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به أرجاء العرش: إن كنت تعلم أني على الصواب فلاتهتك لي ستراً" (١) وحين انصرف جل العلماء إلى جمع الأموال والسعي على العيال والحرص على إرضاء الزوجات جاءه التأييد والتثبيت على الحق والتصبير على البلاء والعذاب في سبيل الله من اللصوص والنشالين.
قال ابنه عبد الله: "كنت كثيراً أسمع والدي – أحمد بن حنبل – يقول: رحم لله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

_____

(١) صفة الصفوة (٢١٢/١) – ابن الجوزي – ط. دار الفكر

فقلت له: يا أبي من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه قلت: لا. قال أبو الهيثم الحداد، اليوم الذي أخرجت فيه للسياط، ومدت يداي للعقابين – هما خشبتان يشبح الرجل بينهما ليجلد – إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول تعرفني؟ قلت: لا. قال أنا أبوالهيثم العيار – أي النشيط في المعاصي – اللص الطرّار – أي النشال من الجيوب – مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين. (١)
مشاهدة النعم:
ما أكثر نعم الله على العباد وأجلها، والناس عمي عن هذه النعم فإذا فقدوا إحداها رجت إليهم أبصارهم والعاقل يعرف أن الله إذا سلب منه نعمة فما هي إلا قطرة في بحر نعم الله المعلومة عنده، بل إن نعم الله المعلومة عنده ليست سوى قطرة في بحر ما لا يعلم من النعم. وما مثل من جزع لفقد نعمة من النعم إلا كمثل من أنعم عليه الملك بما لا يعد ولا يحصى من الأموال ثم سلبه ديناراً واحداً ليختبره في منحته وليبرهن على جوده وأصالته، فإذا بصاحبنا يبكي ويجزع وينوح ويفزع كالطفل إذا نزعت منه لعبته فهو يبكي حتى ترجع إليه. هذا فهم يونس بن عبيد الذي برز جلياً حين تكلم مع الثرى الموسر صاحب الملايين! فماذا قال له؟
جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً لذلك فقال: أيسرك ببصرك مائة الف؟ قال: لا. قال: فبسمعك؟ قال: لا؟ قال: فبلسانك؟ قال: لا قال: فبعقلك؟ قال: لا. وذكره نعم الله

عليه ثم قال يونس : أرى لك مئين ألوفا وأنت تشكو الحاجة !! (٢)

_____
(١) مناقب الإمام أحمد ص ٣٣٣، ٣٣٤ – أبو الفرج ابن الجوزي – دار الآفاق الجديدة
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٩٢/٦)

(٩١/١)

وقد كان الإمام الشافعي حاد البصر فكان له من مشاهدة النعم نصيب حتى قال عند موت ابنه: "اللهم إن كنت قد ابتليت فقد عافيت، وإن كنت أخذت فقد أبقيت، أخذت عضواً وأبقيت أعضاء، وأخذت ابناً وأبقيت أبناء.
ومن قبله حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس حين أصابه العمى انطلق ينشد
إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ... ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي عوج ... ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور
اقتفاء الأثر يهدي:
هذه أم طلحة لما مات ابنها سمت فوق أحزانها حتى لم يبق في المصيبة معنى المصيبة ولا مع النكبة حزن النكبة بل الأجر والثواب فحسب، فأنستها حلاوة أجرها مرارة ألمها وفاضت حتى تزينت لزوجها وكأنها عروس ليلة الزفاف فأصاب منها ولما فرغ قالت له: يا أبا طلحة لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا. قالت: فاحتسب ابنتك، فغضب العريس وشكاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده يقدم التهنئة له على صورة دعاء: (الله بارك لهما)، فأخلف الله عليهما ورزقهما ولداً غيره.
وهذا عمران بن حصين كان صابراً على البلاء ثلاثين سنة كان عظاماً ممددة على سريرها، ولما دخل عليه أخوه مع الإمام الشعبي رأياه ممدداً على سرير كأنما شد بالحبال وما شد إلا بانتهاك أعصابه وذوبان لحمه ووهن عظامه فبكى أخوه فقال عمران : لا تبك فإن أحبه إلى الله أحبه إلي.
وهذا عروة بن الزبير مجلد من مجلدات الصبر، وقد وقعت في رجله الأكلة فأشاروا عليه بقطعها لا تفسد جسده كله، فأشار عليهم بقطعها في الصلاة وخرج من دنيا البشر إلى رحاب القرب من الله فقطعوا كعبه بالسكين دون أن يلتفت، حتى بلغوا عظمه فوضعوا عليه المنشار ونشروه وهو لا يلتفت ثم جيء بالزيت المغلي فغمرت به فغشي عليه ساعة ثم أفاق وهو يقول: هل انتهيتم ؟!

(٩٢/١)

وهذا ابن عباس نعيت له ابنته فاسترجع وقال: عورة سترها الله، ومؤونة كفاها الله وأجر قد ساقه الله، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى. قال تعالى: "واستعينوا بالصبر والصلاة..".
تلمح فجر الأجر:
هذا الحيوان الأعجمي الذي لا عقل له يدربه صاحبه، فيصبر على السير على الحبال واقتحام حلقات النيران وخوض الصعاب طمعاً في قطعة لحم يحظى بها عند إتمام فقرته يوم العرض، فاصبر أنت – يا صاحب العقل- على ما هو دون ذلك من محن الزمان طمعاً فيما أعده الله للصابرين من جزاء يوافيهم به يوم العرض.
ولأن شمس الأجر فوق رؤوس الصالحين بازغة لا تغيب، ساطعة لا تحجبها غمامة شك أو سحابة هوى فقد كانوا كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم " ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء" (١)
فرح حقيقي من أعماق القلب من علاماته عدم الشكوى قال مغيرة: ذهبت عين الأحنف فقال: ذهبت من أربعين سنة ما شكوتها إلى أحد" (٢)
ومن علاماته تقديم الشكر عليه.. صدع فتح الموصلي فقال: " يارب ابتليتني ببلاء الأنبياء، فشكر هذا أن أصلي الليلة أربعمائة ركعة" (٣)
ومن علاماته الاستسلام لقدر الله وتفويض الأمر إليه عند نزول البلاء. واعتقاد أن الخير كل الخير فيما اختاره لعبده. قال أحدهم عن الحمى وقد نزلت به وأعيته:

زارت مكفرة الذنوب ... ... فسألتها بالله أن لا تقلعي
منع الله عطاء:
قال شيبان الراعي لسفيان الثوري: " يا سفيان عد منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلاً إنما منعك لطفاً "(٤)

_____
(١) رواه ابن ماجة وأبو يعلى في مسنده والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد كما في ص ج ص رقم ٢٣١
(٢) سير أعلام النبلاء (٩٢/٤) – شمس الدين الذهبي – ط. مؤسسة الرسالة
(٣) حلية الأولياء (٢٩٢/٨) – أبو نعيم الأصفهاني – ط. دار الكتب العلمية
(٤) صيد الخاطر ص ٢٥٣

خرق الخضر السفينة لكي تنجو، وقتل الغلام لكي ينقذ أبويه من طغيانه وكفره، وبنى الجدار لكي ينتفع الغلامان بكنزهما المدفون تحته عند الكبر.
حدثني من أثق في صدقه أن أحد أصحابه سجن ظلماً عام ١٩٦٥ وكان ضابطاً في الجيش فما حلت النكسة عام ١٩٦٧ أبيدت فرقته بالكامل، فحمد الله الذي حفظه في سجنه وحماه من موت محقق.
وحدثني أحد مشايخي أن أخا له أراد سفراً وتأخر عن موعد الحافلة ففاته ركوبها فتملكته الحسرة إذ كان على موعد هام يخشى فواته، ولما ركب الحافلة التي تليها وجد الحافلة الأولى غارقة في النيل وقد هلك جميع ركابها، وألسنة العامة تفيض بوقائع تؤكد هذا المعنى. وإذا نظر المؤمن إلى مصائبه من هذه الزاوية عرف معنى قول الله تعال: " وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم " }البقرة : {
وإذا استقر هذا المعنى يقيناً في القلب أورث التسليم الكامل والرضا التام بما قدره الله لأن العبد جاهل كل الجهل بما ينفعه والرب عالم كل العلم بذلك. قال عمر: ما أبالي على أي حال أصبحت أعلى ما أحب أم على ما أكره؟ ذلك أني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره؟ (١)
استرجع:

_____
(١) رواه أحمد في العلل (١٤٩/١) نقلاً عن رسال المسترشدين

قال تعالى مادحاً عباده المؤمنين : " الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله إنا إليه راجعون" }البقرة١٥٦: { وهذا من فضل الله تعالى وكرمه.. ابتلانا ليكفر آثامنا ويرفع درجاتنا فوق ذلك وأعاننا على سلوك طريق الصبر بإرشادنا لترديد هذه الكلمات المباركات. غاص الإمام ابن القيم في أعماقها واستخرج منها درر المعاني تتلألأ في ضوء البصيرة الإيمانية فقال: "وهذه الكلمة من أبلغ علاج للمصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته أحدهما: أن العبد وأهله وما له ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضاً فإنه محفوف بعدمين عدم قبله وعدم بعده وملك العبد له منحة معارة في زمن يسر، وأيضاً فإنه ليس الذي أوجده من عدمه حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات لعلمه وجوده ولا يبقى عليه وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقيين وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور ولهذا لا يباح له من التصرفات إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي، والثاني أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ويجئ ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما هوله ونهايته فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود ؟؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء"(١)
عند اشتداد الكرب تبدو مطالع الفرج:

لم يجعل الله اليسر بعد العسر أو عقبه بل معه فقال: "فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا" وذلك ليؤكد على أمرين:
الأول: قرب تحقق اليسر عند العسر حتى كأنه معه ومتصل به، وفي هذا قال بعض السلف: لو دخل العسر حجراً لتبعه اليسر

_____
(١) زاد المعاد (٣، ١٢٥،١٢٦)

الثاني: إن مع العسر بالفعل يسراً ومع المنع عطاء ومع الفقر غنى قد يكون ظاهراً ملموساً وقد يكون خفياً مكتوماً وهذا هو اللطف ففي كل قدر لطف وفي كل بلاء نعمة ومن ظن انفكاك لطف الله عنه فذلك لقصور نظره عن مشاهدة آثار قوله تعالى: (إن ربي لطيف لما يشاء)
إذا ضاق بك الأمر ... ... ففكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين ... ... لهذا الهم أن يبرح
وهذه أم المؤمنين عائشة توقد فيك جذوة الأمل إن كانت عواصف البلاء قد أخمدتها، وتمحو في نفسك آثار اليأس والقنوط عن طريق قولها لك: " كن لما له ترج أرجى منك لما ترجو فإن موسى بن عمران خرج يقتبس ناراً فرجع بالنبوة" (١) فإن لم تجد هذه الكلمات شيئاً معك أتيناك بشعر الفقيه الأديب الثاري:
اشتدي أزمة تنفرجي ... ... قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة ... ... واصبر فعسى التفريج يجي
يريد أن يقول لك إذا ضاق الأمر اتسع، وإذا اشتد الحبل انقطع، واعلم (أن وراء الظلام فجراً،وخلف الغمام بدراً، أن ضحك الرياض في بكاء السحاب، وحياة النبات في شق التراب، وأنها الغمرات ثم ينجلين، والظلمات ثم يولين، وإن حالها لا يدوم أبداً، وأن مع اليوم غداً
استراحة:
من عبير الرعيل الأول
إخلاص محمد صلى الله عليه وسلم حوَّل كل بقعة حل بها إلى طهر (وجعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً)، ونفاق المنافقين حول المسجد إلى نجاسة والصلاة في موضع النجاسة حرام بالإجماع (لا تقم فيه أبداً).
دراهم أبي بكر أصلية ضرب عليها (ولكن يناله التقوى منكم) ، ودراهم ابن أبي زائفة نقش عليها (لن يتقبل منك)، وعند الشراء ينكشف الزيف
سعيد بن عامر والي حمص وأفقر فقرائها !! بعث له أمير المؤمنين عمر مالاً يصلح به شأنه فأصلح به شأنه .. تاجر مع الله فربحت تجارته .. بذل على فاقة لينغم يوم الفاقة.. وأنفق في تجهيز محل الإقامة ليطيب اللقاء يوم الوصول.

_____
(١) الفرج بعد الشدة ص ٥٢ – جلال الدين السيوطي – ط. دار الشهيد

سعيد لما جاءه المال قال: إنا لله و إنا إليه راجعون .. لسان حاله : ما أصنع بهذا البلاء وشقي لما أتاه المال قال: إنا والله في لهونا غارقون .. لسان حاله: مرحى مرحى بالفحشاء . سعيد أجره عالي لأن بذله غالي، وشقي سيره غاوي فهو للنار غاوي.
أرهب عمر شيطانه فكان عمر إذا سلك فجاً غير الشيطان طريقه وسلك فجاً غير فجه، لأن عمر ورث قوته المرعبة من نبي قال عن نفسه: (نصرت بالرعب مسيرة شهر).
رأى عبد الله بن رواحة مصرع أخويه أمام عينيه يوم مؤتة بعد حملهما راية الموت، وجاء دوره فتردد ثم استنزل نفسه فقاتل حتى قتل، علم الذي لا تخفى عليه خافية الفارق فأعلن على لسان حبيبه (لكني رأيت ازوراراً في سرير ابن رواحة)، العدالة حتمية لأن الدقة خردلية (وإن كان مثقال حبة من

خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).
نزع حنظلة نفسه من أحضان عروسه ليلة الزفاف لأن الحور نادته، وهو يعلم جيداً الفارق بين هذه وتلك، وعند إراقة دمه أعلنت الملائكة حالة الطوارئ: ففريق يغسله، وفريق يطيبه، وفريق يزفه إلى عروسه الجديدة.
في طريقهم إلى تبوك مر الصحابة على آبار عاد وثمود، فمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم من الشرب منها رغم شدة عطشهم لأن سؤر الكلاب نجس.
لما دنت قافلة المحبين من أحد لاحت لهم من بعيد ديار الحبيب، وما إن خالطت أنفاس أنس بن النضر أنفاس معشوقته حتى هبت النسمات فزفر بالأنات: (واها لريح الجنة إني لأجد ريحها خلف أحد) ، ثم دخلها بعد أن دفع رسم الدخول: بضعاً وثمانين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم.
تنافس معاذ ومعوذ على ذبح رأس الكفر أبي جهل على الطريقة الإسلامية ليقدما رأسه هدية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهذا ضربة وذاك أخرى حتى قتلاه، وعند قبض الثمن اختلفا فتخاصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فطلب رؤية دليل الإثبات (السيوف) وبعد المعاينة قضى باقتسام الأجر مناصفة قائلاً (كلاكما قتله).

(٩٧/١)

اشتد الجوع على المسلمين في حصار يهود خيبر فلجأوا إلى أكل الحمر الأهلية، وعند التسمية والهم بالبدء جاء الأمر صارماً من النبي صلى الله عليه وسلم (حرمت عليك الحمر الأهلية) صدر الأمر بعد تجشم مشقة جمع الحطب، وتكبد أثمان الحمر ليكون اختبار الإيمان أصعب وبرهان المحبة أوضح.
مشروع ٧
اسكب العطر الحلال
وقفة إيمانية
لك مقدار دمع إن لم تكفك الدنيا لتذرفه ذرفته في الآخرة، وعندك مخزون حزن إن استنفذته في دنياك انمحى من ذاكرتك معنى الحزن في أخراك، وكنت من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر، ادفع الثمن كاملاً اليوم فلا مجال هناك للمساومة.
قبل التنفيذ
أرباح المشروع:
لأن ابن عمر اطلع على هذه الأرباح فقد قال: لأن أدمع من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار، وكان رفيقه في المشاهدة وأخوه في التفكر أبو الفرج ابن الجوزي الذي قال: قطرة من الدمع على الخد أنفع من ألف مطرة على الأرض، ومن هذه الأرباح أن الباكي من خشية الله:
في ظل العرش
فإن الباكي من خشية الله قد وعده النبي صلى الله عليه وسلم بأن يكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه).
هذا رجل امتلأ قلبه خشية لربه حتى فاض على عينيه بالعبرات، وعامل الله سراً فأثابه الله جهراً، بل وسلمه جائزته على رؤوس الخلائق يوم القيامة، ولما قاسى حر الخوف من الله في الدنيا كان جزاؤه من جنس عمله فعافاه الله من حر يوم القيامة وأظله في ظل العرش.
في مأمن من عذاب الله:

(٩٨/١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله" (١) عين ذرفت الدمع خشية من الله لهي عين ناجية ولو كان هذا الدمع طفرة ثم ولت أو مرت في العام ثم أدبرت. قال سفيان: البكاء عشرة أجزاء فواحد منها لله والتسعة كلها رياء، فإذا جاء ذلك الجزء الذي لله تعالى في السنة مرة واحدة نجا صاحبه من النار إن شاء الله" (٢) ويسمى القشيري ذلك الباكي (عتيق الله بشعرة) ، ويحكي قصته قائلاً: "إن عبداً شهد عليه أعضاؤه بالزلل فتطايرت شعرة من جفن عينيه فتأذن بالشهادة فيقول الحق:

تكلمي يا شعرة جفن عبدي واحتجي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له وينادي مناد: هذا عتيق الله بشعرة" (٣)
فتقوم الشعرة بمهمة الشاهد الذي حسمت شهادته وجلبت الحكم بالبراءة.
هي الدموع المباركة إذن تحمى صاحبها من عذاب الله، ولا تمس موضعاً إلا حمته ولا عضواً من أعضاء الجسد إلا حرمت عليه النار. قال أبو معشر: رأيت أبا حازم (سلمة بن دينار الأعرج) يقص في المسجد ويبكي ويمسح بدموعه وجهه فقلت: يا أبا حازم لم تفعل هذا؟ قال: بلغني أن النار لا تصيب موضعاً أصابته الدموع من خشية الله (٤)
وقد يحتاط تقي ورع أو عابد مجاهد فيحضر شهود إثبات غير شعر جفن العين كما هو في حالة ثابت البناني الذي قال: " ماتركت في المسجد سارية إلا ختمت القرآن عندها وبكيت عندها" (٥)
في كنف المحبة الإلهية

_____
(١) رواه الترمذي عن ابن عباس وأبو يعلى في مسنده عن أنس كما في مشكاة المصابيح رقم ٣٨٢٩
(٢) تنبيه المغترين ص ٤٤
(٣) لطائف الإشارات (٢٢٣/٣)
(٤) صفة الصفوة (٩٢/٢)
(٥) صفة الصفوة (٣/ ١٤٩)

عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم "ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تهرق في سبيل الله، أما الأثران فأثر في سبيل الله (الجهاد)، وأثر في فريضة من فرائض الله" (١)
والسر في هذا أن البكاء من خشية الله أبلغ دليل على أن خوف الله في القلوب طرد الخوف ممن سواه وصار متربعاً على عرش القلب لا ند له ولا شريك، فلا خوف ولا وجل ولا رجاء ولا توكل ولا رغبة ولا تعلق إلا بالله وحده الذي تتصدع الجبال إذا نزل عليها كلامه، وتوجل القلوب وتنفطر إذا تليت عليها آياته، وتسري هذه القشعريرة من القلب إلى العين فتترجمها دموعاً جارية أصدق ما توصف به:
وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ... ولكنها رحي تذوب فتقطر
ويصوغ هذا المعنى سيد الزهاد يحيى بن معاذ في كلمات مذاقها أشهى من العسل فيقول (من كان يريد القرب من المحبوب فليكثر البكاء على المحبوب) (٢)
غفران الذنوب:
قرر أبو يحيى مالك بن دينار أن (البكاء على الخطيئة يحط الخطايا كما تحط الريح الورق اليابس) .
وإن كان الحافظان يحصيان أنفاسك ويسجلان همساتك ويستعينان في ذلك بذاكرة لا يعرف النسيان إليها سبيلاً فإن الوضع في حالة البكاء مختلف. قال يزيد الرقاشي : بلغني أن من بكى على ذنب من ذنوبه نسي حافظاه ذلك الذنب
كتبت بأدمعي في صحن خدي ... كتاباً بالتذلل والخضوع
فقالوا قد عفونا عنك لما ... ... محوت قبيح فعلك بالدموع
علامة التوبة الصادقة:

_____
(١) رواه الترمذي والضياء عن أبي أمامة كما في الجامع الصغير رقم ٧٦٠٠ ورمز له السيوطي بالصحة
(٢) تنبيه المغترين ص ١٧٨

من مشاهداته وتفرساته في أحوال المؤمنين رأى يحيى بن معاذ أن (علامة التائب إسبال الدمعة وحب الخلوة، والمحاسبة تنفس عنه كل همة)(١) بل جزم بعضهم أنه (ما ارتوى زرع توبة قط إلا من جداول الحدق) وتعليل هذا أنه لما كثر الزيف وعم البهرج وتسلل إلى الصالحين أدعياء الصلاح ولبس المراؤون لباس الأبرار، وأتقن بعضهم فن التصنع واحترف التمثيل احتاج أمر التوبة إلى جليل، والاعتراف سيد الأدلة، فإن صاحب الاعتراف قرينة تؤكده كالدموع، جاء العفو شاملاً وقضى القاضي بالبراءة

لتذرف دمعك المدرار حتى ... ... تعود الصحف بيضاء نقية

فإن سقوط دمع العين سحاً ... ... دليل العفو من رب البرية

شعار القلب الحي:

لأن (الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد في النار عرق طرفها الآخر، وكذلك القلب إذا كانت فيه حرقة ندامة الذنوب جادت العينان بوابل الدموع ولأتت الجوارح بالخضوع والقلب بالإنابة والخشوع) (٢)

يا أخي .. إن المسافر إذا طالت غيبته ترحموا عليه وعدوه في الأموات، فيا من طالت غيبته عن المجلس: إن كان قلبك وقت المواعظ يخشع وعينك تدمع فهناك أمل وإلا فعظم الله أجرك وأحسن عزاءك.

الشروط الجزائية

لعلمه بفضل البكاء من خشية الله وفراق؟؟ مصاب من فاته ثوابه فقد نفى أبو محمد ثابت البناني الخيرية عن العين المجدبة، رق الناس لحاله لما رأوا كثرة بكائه فقالوا: لا تبك قال وما خير في عين لا تبكي" (٣)

قسوة القلب:

لما قدم أهل اليمن زمان أبي بكر رضي الله عنه وسمعوا القرآن جعلوا يبكون فقال أبو بكر: " هكذا كنا ثم قست القلوب" (٤)

_____

(١) صفة الصفوة (٦١/٤)

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين ص ١٧٨ ابن الجوزي – ط. دار الريان

(٣) صفة الصفوة (١٤٨/٣)

(٤) حياة الصحابة (١٧٣/٣)

هكذا عد الصديق قحط العينين وعدم جودهما بالبكاء من علامات قسوة القلب، وإحاطته بطبقات الران، وفقدانه لحساسيته الإيمانية فلا يستقبح ذنباً ولا ينكر منكراً ولا يستوحش خطيئة ويسبح في قسوته كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله

بخلت عيونك بالبكا فلتستعر ... ... عينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكي بها ... ... أرأيت عينا للدموع تعار

فإذا ارتبطت قسوة القلب برجحان كفة السيئات على كفة الحسنات كان من العقوبات في الآخرة البكاء في النار:

قال النبي صلى الله عليه وسلم "وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي" (١)

ويتناول واعظ الآفاق أبو الفرج ابن الجوزي هذا لحديث معلقاً وشارحاً فيقول " لا بد من قلق ومن حرقة: إما في زاوية التعبد أو في هاوية الطرد، إما أن تحرق ثيابك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب، وإلا فنار جهنم أشد حراً (٢)

وعن صفة هذا البكاء يحدثنا النبي صلى الله عليه وسلم في كلمات لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أخبر بها لحسبناها لوناً من الخيال أو ضرباً من الأوهام فيقول وكأنه يرى هذا المشهد أمام عينيه" "يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، ولو أرسلت فيه السفن بحرت" (٣)

تسهيلات المشروع:

تفكر في ذنوبك:

_____

(١) رواه ابن حبان وأبو نعيم عن شداد ابن أوس وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٤٢٠٨
(٢) المدهش ص ٢٦٤
(٣) رواه ابن ماجة عن أنس كما في ص ج ص رقم ٨٠٨٧ والسلسلة الصحيحة رقم ٣١٧٩

(١٠٢/١)

من أعظم بواعث البكاء إلى العين لأن الذنب هو علامة هوان العبد عند الله ولو عز عنده لعصمه، ولأنه يبعد الملك ويدني الشيطان، ويبكي الحفظة، وينفر الصالحين، ويقرب المذنبين، ويمنع الرحمات، وينزع البركات، ويوجب اللعنات ويدني من النار، ويصرف عن الجنة ولو مات العبد فور ارتكابه له لختم له بسوء كل هذا يدفع العبد إلى أن يغسل الحوبة بدمع، ويرفع الزلل بندم ويحرق الذنب بوجل
دخل أبو داود الحفري على كرزيق وبرة فإذا هو يبكي فقيل له: ما يبكيك؟ قال "إن بابي لمغلق، وإن ستري لمسبل، ومنعت جزئي أقرأه البارحة، وما هو إلا بذنب أحدثته" (١)
وانظر إلى أبي سعيد الحسن البصري الذي وصفه بعضهم فقال: كأن النار لم تخلق إلا له، كان له من التفكر في ذنوبه باع لذا كان غزير الدمع فلما قيل له في ذلك قال: "وما يؤمنني أن يكون اطلع علي في بعض ذنوبي فقال: اذهب لا غفرت لك" (٢)
وبجواب مشابه أجاب أبو سليمان داود الطائي من استغرب حزنه وبكاءه بقوله: (كيف لا يحزن في الدنيا من تتجدد عليه المصائب في كل ساعة ؟!) يعني الذنوب
جل في الحشر بقلبك

_____

(١) صفة الصفوة (٥٩/٣)
(٢) صيد الخاطر ص ١٠٢

(١٠٣/١)

ما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم والخليل إبراهيم والكليم موسى والروح عيسى وهم على سلم الكرامة على الله وقمة جبل المحبة ومع هذا كل ينادي: نفسي نفسي شفقاً من شدة غضبه وهول عذابه، ويذهل فيه رسل الله وتطيش عقولهم لما رأوا ما لا طاقة لهم به ويتلعثمون في إجابة سؤال ربهم (ماذا أجبتم) فيقولون في وجل وذهول (لا علم لنا)، فما ظننا بهم ذلك اليوم الذي يقف الناس فيه خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون شربة حتى تنقطع أعناقهم من العطش وأجوافهم من الجوع، ويتمنون الانصراف ولو إلى النار التي يرتفع عنقها لتنطق بلسان فصيح يسمعه بوضوح كل من شهد الموقف وتنادي على من وكلت بأخذهم من الخلائق فتلتقطهم التقاط الطير للحب والناس يشاهدون ولأدوارهم ينتظرون بسبب هذا الخوف بكى بديل بن ميسرة العقلي حتى قرحت مآقيه فكان يعاتب في ذلك فيقول: "إنما أبكي خوفاً من طول العطش يوم القيامة " (١)
ولما دخل علي بن محمد بن إبراهيم على أسود بن سالم ليلة أنشأ يقول:
أمامي موقف قدام ربي ... ... يسائلني وينكشف الغطاء
فحسبي أن أمر على صراط ... ... كحد السيف أسفله لظاء
فصرخ أسود ولم يزل مغشياً عليه حتى أصبح (٢)
أحضر جهنم أمام عينيك:

_____

(١) صفة الصفوة (١٥١/٣)
(٢) صفة الصفوة (١٨٦/٢)

(١٠٤/١)

ينادي أهلها بأعلى صوتهم: يا مالك قد حق علينا الوعيد .. قد أثقلنا الحريق .. يا مالك قد نضجت منا الجلود .. يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، فيرد عليهم بعد أربعين سنة في رد يشبه الصاعقة: إنكم ماكثون .. لا ينجيهم الندم .. ولا ينفعهم الأسف .. فهم غرقى في النار . طعامهم نار .. وشرابهم نار .. ولباسهم نار .. ومهادهم نار.. فهم بين عذاب النار وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل .. تغلي بهم النار كما تغلي باللحم القدور.. ويهتفون فيها بالويل والعويل والثبور.. يصب من فوق رؤوسهم الحميم .. يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد .. يهشم بها جباههم، فينفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، ويسيل على الخدود الحدق .. كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.. غلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم.. يمشون على النار بوجوههم، ويطأون أشواك الحديد بأحداقهم، فلهيب سار في بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم.

فبالله هل لأحد منا طاقة على تحمل لحظة واحدة من اللبث فيها أو ما تفتدي نفسك من لحظة واحدة فيها بنعيم الدنيا بأسره، أو ما تشري البعاد عنها بسهر الليل كله وعطش النهار كله إن كان يصلح ثمناً.

هذا هو الذي أبكى يزيد بن مرثد: لما سأله أحد أصحابه: ما لي أرى عينك لا تجف؟! قال: وما مسألتك عن ذلك؟! قلت: عسى الله أن ينفع بي. قال: يا أخي " إن الله تواعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار ولو تواعدني أن لا يسجنني إلا في حمام لكان حرياً أن لا يجف لي عين (١)

ما أقل الزاد وأبعد الطريق:

كان فضالة بن صيفي كثير البكاء، دخل عليه رجل وهو يبكي فقال لزوجه: ما شأنه؟ قالت: "زعم أنه يريد سفراً بعيداً وما له زاد" (٢)

كيف لا أبكي على عيش مضى ... ... بعت عمري بحقير الثمن

---

(١) الزهد لابن المبارك ص ١٠٥ = ط. دار ابن خلدون

(٢) المدهش ص ٢٠٤

كيف أرجو البرء من داء الهوى ... ... وطبيبي في الهوى أمرضني

هذا طريق القائم فيه على خطر فكيف بالنائم ؟! الوقت يكفي المجد بالكاد فكيف بمن أصابته نزلة فتور؟ من انقطعت به راحلته عن إتمام السفر فلا يلومن إلا نفسه، ومن هلك من شدة العطش فعلى نفسها جنت براقش، لو جئت بعبادة الثقلين خفنا عليك فكيف وما في جعبتك غير نفس معيبة وقلب قاس وروح آسنة وفكر عاطل وإيثار الدنيا على الآخرة ؟!

احذر فوات الجنة:

قام رجل من الصالحين يصلي من الليل فمر بقوله تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين)، فجعل يرددها ويبكي حتى أصبح فقيل له: لقد أبكتك آية ما مثلها يبكي. إنها جنة عريضة واسعة فقال: يا ابن أخي، وما ينفعني عرضها إذا لم يكن لي فيها موضع قدم" (١)

وما أحد أحوج إلى البكاء أقرب إلى الحسرة من رجل ظن أن الجنة منتهاه والنعيم مثواه ثم بدا له خلاف ذلك.

قام أبو عبد الله محمد بن المنكدر ليلة يصلي فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله، فسألوه ما الذي أبكاك فاستعجم عليهم فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم وأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك؟ قد رعت أهلك، فقال: له: إني مرت بي آية من كتاب الله عز وجل، قال: وما هي؟ قال: قول الله عز وجل (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)، قال: فبكى أبو حازم معه واشتد بكاؤهما، فقال: بعض أهله لأبي حازم: جئناك لتفرج عنه فزدته (٢)

ابك تعجيل الحسنات:

هذا عبد الرحمن بن عوف يؤتى بطعام وكان صائماً فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير منى فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة إن غطى بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطى بها رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط. قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام. (٣)

(١) الصلاة والتهجد لابن الخراط ص ٢٧٧
(٢) صفة الصفوة (٨٣/٢)
(٣) رواه البخاري

مصعب بن عمير.. الذي كان يرتدي الثوب مرة واحد فإن تواضع فمرتين ثم يخلعه لا ليلبسه بل ليرميه، ويسبل إزاره حتى يكاد يتعثر به، ويضع عطراً يعرف بين الناس باسمه، ويمشي مشية يحسده عليها الطاووس في سباق دائم مع أصحاب النعيم عفواً بل مع النعيم نفسه، بذر هذا الخوف في قلب عبد الرحمن بن عوف وهو المبشر بالجنة "أفلا يبذر الخوف في قلبك ؟!

خف سابق علم الله فيك:

كان الفضيل بن عياض، رحمه الله إذا لقي سفيان الثوري يقول له:" تعال حتى نبكي في علم الله فينا هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي" (١)

وكان أبو بكر الشبلي يقول: " ليت شعري ما اسمي عندك يا علام الغيوب، وبم تختم عملي يا مقلب القلوب" (٢)

وكان بلال بن سعد يقول: (رب مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار) (٣)

تناغم مع الكون:

البكاء من خشية الله هو المنظومة التي يسير عليها الكون بأسره والنشيد الذي يشترك الخلق كل الخلق في ترديده، فإذا لم تذرف دموع الخشية فقد شذذت عن الناموس وخالفت النظام.

مر رجل على عبد الله بن عمر وهو ساجد في الحجر وهو يبكي فقال: أتعجبون أن أبكي من خشية الله وهذا القمر يبكي من خشية الله. قال: ونظر إلى القمر حين شف أن يغيب (كاد أن يغيب) ولم يبق منه إلا القليل (٤)

ما أقسى قلبك يا ابن آدم .. وما أعظم جحودك . .وما أعصاك على الله وصدق رسول الله حين قال: (ليس شيء إلا وهو أطوع لله تعالى من ابن آدم) (٥)

عند التسليم:

مشروع ٨

خير الناس أنفعهم للناس

وقفة إيمانية

قبل التنفيذ

الغريق الأحمق

(١) الفتح الرباني ص ٣٧
(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢٧٧)
(٣) صفة الصفوة (١٥٠/٤)
(٤) تاريخ دمشق (٤٦/٣٧) – الحافظ ابن عساكر – مؤسسة الرسالة
(٥) رواه البزار عن بريدة، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ٥٢٦٩

من الغباء أن يتمنى الإنسان شيئاً دون دفع الثمن ليحصل عليه، ولا يختلف اثنان على حماقة الذي يرفع يديه إلى السماء منتظراً أن تمطر عليه ذهباً وفضة، والأحمق منه الذي يطلب النجاة في الآخرة ولا يبذل أسبابها، يصفه الرافعي وهو وسط الموت قائلاً: "ويحه من غريق أحمق !! يرى الشاطئ على بعد منه فيمكث في اللجة مرتقباً أن يسبح الشاطئ إليه، ويثبت الشاطئ ويدع الأحمق تذوب ملحة روحه في الماء!

اسبح ويحك وانج!! فإن روح الأرض في ذراعيك، وكل ضربة منهما ثمن ذرة من هذا الشاطئ، كذلك ساحل الخلد، عاملاً لا وادعاً، يلهث تعباً لا ضحكاً، ويشرق بأنفاسه لا بكأسه، وينضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته (١)

أرباح المشروع:

لضخامة هذه الأرباح فقد قدم الماوردي توطئة لذكرها تدفع المرء إلى التشبث بكل فرصة معروف تظهر أو بادرة خير تلوح فقال : " ينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يعجله فإنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندماً، ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلاً، ولو فطن لنوائب دهره، وتحفظ من عواقب فكره لكانت مغارمه مدحورة، ومغانمه محبورة، وقد قيل : من أضاع الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها" (٢).

فائدة رباعية:

قال النبي صلى الله عليه وسلم "أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ثبَّت الله قدمه يوم تزل الأقدام" (٣)

_____

(١) كتاب المساكين ص ٦٣.

(٢) فيض القدير (٢٠٦/٤).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج والطبراني عن ابن عمر، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم ١٧٦.

أخي المتعاقد .. لا تكن ممن تعجبه الكلمات وتغمره السكرات، أو ممن أعظم المهر وأساء الخطبة، أو ممن رام السفر إلى الشام فسلك طريق اليمن، بل كن من أهل العمل بهذا الحديث العاقدين العزم على أن تكون كلماته أوامر تطاع وتعليمات تنفذ بعد أن أيقظت فيهم مشاهدة أرباحه الرغبة في فعل الخير، وأوقدت في ضمائرهم جذوة المعروف يأوي إليها كل ملهوف ويهتدي بها كل حيران.

لأنهم شاهدوا هذه الأرباح كان أحدهم يرى لصاحب الحاجة الفضل عليه، كما كان الليث بن سعد يقول: " من أخذ مني صدقة أو هدية فحقه عليّ أعظم من حقي عليه لأنه قبل مني قرباني إلى الله عز وجل" (١)

بل يرى الفضيل بن عياض أن المعروف لا يكتمل إلا (أن ترى المنة لأخيك عليك، إذا أخذ منك شيئاً، لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضاً فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك" (٢) وفوق ذلك .. كان بعضهم يجعل الصدقة التي يريد التصدق بها في يده ويدعو الفقير لتناولها لتكون يد الفقير هي العليا، ويد المتصدق هي السفلى إذ الفقير بقبول صدقتك يصلح لك دينك، وأنت بإعطائه صدقتك تصلح له دنياه فيصبح له الفضل عليك !!

غفران الذنوب:

قال صلى الله عليه وسلم: " بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له" (٣)

هذا رجل حرّكه حب الخير لا حب الثناء إذ لن يراه أحد ممن عبر الطريق التي مهدها ليشكره، لكن ذلك لن يضره لأن الله جل جلاله بنفسه بعث له شهادة تقدير باسمه فحواها (شكر الله له)، ووقع عليها بصك الغفران وخاتم القبول (فغفر له) فهنيئاً له هنيئاً له.

_____

(١) تنبيه المغترين ص ١٣٨.

(٢) السابق ص ١٤٢.

(٣) رواه مالك وأحمد والشيخان عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٢٨٧٤.

لما فهم الحسن البصري يتزلف إلى الله مع كل صدقة ينفقها ومع كل معروف يصنعه ويدعو بهذا الدعاء (اللهم إن هذا يسألنا القوت، ونحن نسألك الغفران، وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية)(١)
فقير يتصدق على فقير:
لأن الغنى ليس غنى المال فحسب، وإنما كل ما ملكته وفقده غيرك فأنت به غني وغيرك إليه فقير صحة كان أو علماً أو حكمة أو غير ذلك من النعم، فليتصدق الصحيح من صحته والعالم من علمه والبصير من حكمته ولينفق كل ذي فضل من فضله، وتتغير المقاييس عند ذاك ليصبح مانع فضله هو البخيل المقيت، وباذل خيره هو الجواد الكريم، ويعود فعل المعروف هو العملة المتداولة في سوق الصالحين ورأس مالهم الذي به بتاجرون وبحماه يحتمون، وإليه يركنون.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة" (٢).
من أهل الجنة :
أخبرنا النبي أن صانع المعروف صاحب القلب الرحيم من أهل الجنة فقال في تقريره وتحديده لأهل الجنة: "وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال" (٣)
وتتنوع أساليب النبي صلى الله عليه وسلم ليرسخ هذا المعنى في جذور قلوب أصحابه فتراه يسألهم يوماً: من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا ، قال: من اتبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا ، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما اجتمعن في رجل إلا دخل الجنة" (٤).
وتأمل:

_____
(١) تنبيه المغترين ص ١٥٠.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن حبان عن أبي ذر كما في ص ج ص رقم ٢٩٠٨.
(٣) رواه أحمد ومسلم عن عياض بن حمار كما في ص ج ص رقمن ٢٦٣٧
(٤) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم ١٢.

ثلاثة أسئلة من أصل أربعة تتعلق بأداء المعروف إلى الغير، كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يطل براسه من وراء الأسطر والحروف يسألك بنفسه هذه الأسئلة، ويقول لك: بذور الخيرات ثمار الجنات، ومن قاسى هجير صنع المعروف في الدنيا قال في ظلال النعيم في الآخرة، وكم ستقر عينه صلى الله عليه وسلم في قبره لو كانت عزماتك خيرية وإجاباتك صديقية. كم ستقر.. كم ستقر !!
صنائع المعروف تقي مصارع السوء(١)
كم بلية غائبة في رحم الغيب أجهضها معروف بذلته أو هم فرجته أو حاجة قضيتها أو محنة أزحتها، واسمع إلى محمد بن الحنفية حين يجزم بأن (صانع المعروف لا يقع، ولو وقع لا ينكسر)(٢)
بل يقسم أبو تراب علي بن أبي طالب في كلمات تلمح فيها بريق الوحي وتشم فيها رائحة النبوة فيقول: " والذي وسع سمعه الأصوات .. ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى تطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل" (٣).
فإذا أعياك مرضك وحار الأطباء في علاجك وبدأ اليأس زحفه المريع نحو قلبك فتذكر هذا الدواء الناجح، وجربه كما جربه عبد الله بن المبارك مع أحد مرضاه فعوفى وشُفى.
سأل رجل ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن قرحة خرجت من ركبتي من سبع سنين، وقد عالجت بأنواع العلاج، وسألت الأطباء فلم أنتفع به، قال: فاذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس للماء فاحفر هناك بئراً فإنني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرئ (٤)
دنياك مرآة لآخرتك:

_____
(١) رواه الطبراني عن أبي أمامة وحسنها الألباني في ص ج ص رقمن ٣٧٩٧.

(٢) تنبيه المغترين ص ١٤٠.
(٣) المستظرف في كل فن مستظرف ص ١٢٥ – شهاب الدين الأبشيهي – ط. دار الكتب العلمية.
(٤) رواه البيهقي عن علي بن الحسن بن شقيق كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٩٥٣.

(١١١/١)

قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة" (١)
==========
==========
وأهل المعروف في الآخرة وحدهم هم من يكسوهم الله ويطعمهم الله ويسقيهم الله ويغنيهم الله. قال عبد الله بن مسعود: " يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، وأنصب ما كانوا قط، فمن كسا لله كساه الله، ومن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن عمل لله أغناه الله" (٢).
يذكر رجل يسمى ابن جدعان فيقول : خرجت فى فصل الربيع ،وإذا بى أرى إبلى سماناً، يكاد الربيع أن يفجر الحليب من ثديها، فقلت : والله لأتصدقن بهذه الناقة وولدها لجارى الله يقول : "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، وأحب حلالى هذه الناقة، يقول : فأخذتها وابنها، وطرقت الباب على الجار وقلت : خذها هدية منى لك، فرأيت الفرح فى وجهه كان يرى ماذا يقول، وجاءه منها خير عظيم.
فلما انتهى الربيع وجاء الصيف بجفافه وقحطه شددنا الرحال نبحث عن الماء فى الدحول – والدحول هى حفر فى الأرض توصل إلى محابس مائية لها فتحات فوق الأرض –
يقول : فدخلت فى هذا الدحل حتى أحضر الماء لنشرب – وأولاده الثلاثة خارج الدحل ينتظرون – فتاه تحت الأرض وانتظر أبناؤه يوما ويومين وثلاثة حتى يئسوا، وكانوا – عياذا بالله – ينتظرون هلاكه طمعا فى تقسيم المال، فذهبوا إلى البيت وقسموا وتذكروا أن أباهم قد أعطى ناقة لجارهم الفقير، فذهبوا إليه وقالوا له : أعد الناقة خيرا لك، وخذ هذا الجمل مكانها وإلا سنسحبها عنوة ولن نعطيك شيئاً.
قال : أشتكيكم إلى أبيكم.
قالوا : اشتك إليه ، فإنه قد مات.

---
(١) رواه الطبراني عن سلمان وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقمن ٢٠٣١
(٢) قضاء الحوائج ص ٤١،٤٢ – ابن أبي الدنيا – ط. مكتبة القرآن

(١١٢/١)

قال : مات ! وكيف مات ؟ ولم لم أعلم بذلك ؟
قالوا : دخل دحلا فى الصحراء ولم يخرج.
قال : ناشدتكم الله اذهبوا بى إلى مكان هذا الدحل، ثم خذوا الناقة وافعلوا ما شئتم ولا أريد جملكم، فذهبوا به، فلما رأى المكان الذى دخل فيه صاحبه الوفى ذهب وأحضر حبلا، وأشعل شمعة، ثم ربطه خارج الدحل، ونزل يزحف ويشم رائحة الرطوبة تقترب، ويتلمس الأرض حتى وقعت يده على الرجل، فإذا هو يتنفس بعد أسبوع، فقام وجرّه، وربط عينيه حتى لا تنبهر بضوء الشمس، ثم أخرجه معه خارج الدحل، وأطعمه وسقاه، وحمله على ظهره، وجاء به إلى داره ودبت الحياة فى الرجل من جديد وأولاده لا يعلمون، فقال : أخبرنى بالله عليك، أسبوعا كاملا وأنت تحت الأرض ولم تمت ؟ قال : سأحدثك حديثا عجبا، لما نزلت ضعت وتشعبت بى الطرق، فقلت : آوى إلى الماء الذى وصلت إليه، وأخذت أشرب منه، ولكن الجوع لا يرحم، فالماء لا يكفى.
يقول : وبعد ثلاثة أيام، وقد أخذ الجوع منى كل مأخذ، وبينما أنا مستلق على قفاى، قد أسلمت وفوضت أمرى إلى الله، وإذا بى أحس بدفء اللبن يتدفق على فمى، فاعتدلت فى جلستى، وإذا بإناء فى الظلام لا أراه يقترب من فمى فأشرب حتى أروى، ثم يذهب، فأخذ يأتينى ثلاث مرات فى اليوم،

ولكنه منذ يومين انقطع ما أدرى ما سبب انقطاعه ؟ يقول : فقت له : لو تعلم سبب انقطاعه لتعجّبت، ظن أولادك أنك مت، وجاءو إلى وسحبوا الناقة التى كان الله يسقيك منها، والمسلم فى ظل صدقته، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.(١)

علامة الإيمان

تقول العامة: الإحساس نعمة، وهذا حق فمن فقد الإحساس بغيره فقد فقد الإيمان وأخمد جذوته. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(٢).

_____

(١) الجزاء من جنس العمل ص ٥١٩ ، ٥٢٠ .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير كما في ص ج ص رقم ٥٨٤٩.

(١١٣/١)

فالمؤمن الحق تلمح في بريق عينيه بوارق البذل، وتسمع من فلتات لسانه كلمات البر، وتشم من ثنايا أفعاله رائحة احتراق النفس ليسعد الآخرون وفنائها ليحيا البائسون، ودفنها في التراب لينبت على أثرها المحرومون.

والإحساس بالمؤمنين والمواساة لهم أنواع: (مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم)(١).

فواس المؤمنين بأي من هذه الأنواع نعلم أن في جسدك بقية حياة وفي قلبك بعض إيمان ولبلوغ هذا الإحساس ذروته علامات منها: بكاؤك إذا طلب منك أن تحسن كما بكى أبو بكر محمد بن سوقة، فإنه لما طلب إليه ابن أخيه شيئاً فقال له: يا عم لو علمت أن مسألتي تبلغ منك هذا ما سألتك. قال: "ما بكيت لسؤالك، إنما بكيت لأني لم أبتدئك قبل سؤالك"(٢).

الشروط الجزائية

من نزع الرحمة من قلبه فقد رمى بنفسه إلى هاوية:

الخيبة والخسران

نطق بهذا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "خاب عبد وخسر من لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر" (٣) وهذه الخيبة والخسارة مردهما إلى طرده من رحمة الله فجزاؤه من جنس عمله ومصيره من نسج يده. ألم تسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم " من لا يرحم لا يرحم"(٤).

_____

(١) الفوائد ص ٢٢٢.

(٢) صفة الصفوة (٥٧/٣)

(٣) رواه الدولابي في الكنى وأبو نعيم في المعرفة وابن عساكر عن عمرو بن حبيب وحسنه الألباني في ص ج ص رقمن ٣٢٠٥

(٤) رواه الطبراني عن جرير كما في ص ج ص رقم ٦٦٠٠ والصحيحة رقم ٤٨٣.

(١١٤/١)

كان الإمام الزمخشري في طفولته يحبس طائراً في بيته، فأتى هذا الطائر وقطع الحبل فنشبت رجله، فانقطعت مع الحبل، وذهب الطائر برجل واحدة، فقالت له أمه: قطع الله رجلك كما قطعت رجل هذا الطائر، فذهب فوقع في الثلج في طريقه إلى مكة، فكسرت من فخذه، وأصبح على رجل واحدة(١)

ديننا يا إخوة هو الدين الذي أدخل امرأة النار في هرة حبستها، وأدخل رجلاً الجنة في كلب سقاه، هو دين الرحمة جاء به نبي الرحمة من رب يرحم من عباده الرحماء، ويثيب من زرع سنبلة رحمة بين الخلق يجنيها حقل رحمات يوم الحصاد،ويجازي من عرض زرع رحمته للبوار يوم القيامة بالبوار.

زوال النعم:
قد قيل (النعم وحشية فقيدوها بالشكر) (٢)
لذا أوصى علي بن أبي طالب جابراً فقال: " يا جابر : من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم بما يجب لله عرضها للزوال" (٣).
ويلفت الحسن البصري أنظارنا إلى أن كل نعمة تحمل بين ثناياها اختباراً يتعرض له كل من يتمتع بها فيقول: "إن الله ليخول العبد في نعمته وينظر ماذا يصنع فيها مع عباده، فإن وفاهم ما طلبوا وإلا حولها عنهم" (٤)
هل علمتم الآن لماذا كان السلف يعزمون على أصحابهم ويشددون عليهم في عدم رد ما أعطوه إليهم ؟!
عصابة الأشقياء الثلاثة:
قال النبي صلى الله عليه وسلم "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل يقول الله له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك " (٥).

_____
(١) الجزاء من جنس العمل (١١٨/٢) - د. سيد العفاني – ط. مكتبة ابن تيمية.
(٢) إحياء علوم الدين (١٣٢/٤) .
(٣) المستظرف ص ١٢٥.
(٤) تنبيه المغترين ص ١٤٩.
(٥) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٩٥٥.

يستحق هذا العذاب أصحاب القلوب الحجرية الذين ظنوا أنهم استحقوا نعم الله بكدهم وتعبهم، وأنهم حازوها بذكائهم وعبقرياتهم، وغاب عنهم أنها عارية هم بها ممتحنون، وأمانة هم لها مؤدون، فمنعوا عيال الله مال الله، فانتقم الله لعياله وحرم من حرمهم وعذب من عذبهم، والموقع على العقد يعلم أن الأمر ليس مقصوراً على قوله (فضل ماء) بل الأمر أوسع وأشمل، فيدخل فيه: فضل علم، وفضل صحة، وفضل مال، وفضل نجدة، وغير ذلك من الأفضال التي لا يخلو منها أي مسلم مهما كان فقره أو بلغت فاقته.
عتاب يورث حياء وحسرة:
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله " إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي (١).
وهو عتاب لو سمعه أحد أهل الجنة من غير أهل العمل به لامتلأ حسرة وندامة على ما فاته فكيف لو كان سامعه من أهل النار؟!
وهو عتاب لو كان في الدنيا حيث العمل ولا حساب لآلم أشد الإيلام فكيف وهو يوم القيامة حيث الحساب ولا عمل؟
وهو عتاب لو وجهه إليك أخوك المريض أو الجائع أو العطشان لكسي وجهك بحمرة الخجل فكيف وقد وجهه إليك صاحب الأمر بالإحسان إلى هؤلاء؟!
هو عتاب من رب رحيم يريد به أن يقول لك:

_____
(١) رواه مسلم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ١٩١٦.

قد فتحت لك باباً من أبواب الجنة فلا تغلقه، ومهدت لك الطريق إليها فلا تسلك غيره، ونقلت لك ما يكون يوم القيامة لتتلافى أسباب العتاب وتعب من كأس الثواب، فإن لم يهزك يسير الإشارة لم ينفعك كثير العبارة.

تسهيلات المشروع:

زر أهل البلاء:

زر داراً للأيتام، واعطف على قسم الحالات الحرجة والحروق بأحد المستشفيات، واملأ عينيك بالرؤية لمن ابتلاهم الله يظهر لك أن لين القلوب وامتلاءها بالرحمة نتيجة عملية ورد فعل طبيعي لهذه الزيارات، لأن حرارة نار الإشفاق تذيب قسوة القلب، والدموع المترقرقة في عيون هؤلاء تعظم وتعظم إلى أن تصير بحراً تغمس فيها القلوب القاسية غمسة لو سئلت بعدها: هل رأيت قساوة قط؟ لقالت : والله ما رأيت قساوة قط، فتعود خلقاً جديداً .. تقطر رقة، وتفيض رحمة، وتمتلئ حناناً.

هي وصية النبي صلى الله عليه وسلم فينا ما ابتدعناها، قال: "أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح على رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك، وتدرك حاجتك" (١)

فبهداهم اقتده:

كان عامر بن عبد الله التميمي إذا فصل غازياً يتوسم من يرافقه، فإذا رأى رفقة تعجبه اشترط عليهم أن يخدمهم ويؤذن وأن ينفق عليهم طاقته (٢)

وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: هلا أبقيت لنا درهماً نشتري به لحماً تفطري عليه، فقالت: " لو ذكرتني لفعلت" (٣)

ومن رحمة عثمان بن عفان مع كبر سنه وعلو مقامه رحمته مع خدمه، فقد كان عثمان بن عفان يأخذ وضوء لنفسه إذا قام من الليل، فقيل له: لو أمرت الخادم فكفتك ! قال: " لا ، الليل لهم يستريحون فيه" (٤)

---

(١) رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في السلسلة الصحيحة رقم ٨٥٢.
(٢) سير أعلام النبلاء (١١٧/٤).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٣٦، ١٣٧) – ابن كثير – ط. دار الكتب العلمية .
(٤) تاريخ دمشق (٢٣٦/٣٩).

وبلغت الرحمة من أويس القرني مبلغاً كان معه إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول" اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به" (١)، وكان مع فقره وحاجته يلتقط الكسرة من المزابل فيغسلها ويتصدق ببعضها ويأكل بعضها ويقول: " اللهم إني أبرأ إليك من كل كبد جائع" (٢).

معرفة النعمة طريق شكرها:

فمن نظر ببصر لا غشاوة عليه إلى نفسه رأى نعم الله عليه سابغة، فأنفق منها وجاد كما أنفق عليه الكريم منها وجاد، ولم يبخل!! كيف وهو يقرأ قول ربه (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)، ويبلغه تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم "اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة" (٣).

---

(١) صفة الصفوة (٢٧/٣).
(٢) صفة الصفوة (٢٧/٣).
(٣) رواهالشيخان وأحمد وأبو داود عن أبي هرية كما في ص ج ص رقم ٨١٩٧.

أراد أبو ذر الغفاري معرفة أنواع هذه النعم لتكون يده هي اليد العليا فألح على النبي صلى الله عليه وسلم في السؤال حتى يعرفها ويعرف ما لديه منها فينفق بقدر استطاعته ويبدل مد طاقته، قال رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال الإيمان بالله. قلت: يا نبي الله مع الإيمان عمل؟ قال : أن ترضخ (تعطي) مما خوّلك الله، وترضخ مما رزقك الله. قلت: يا نبي الله! فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر؟ قال: فليعن الأخرق(١) قلت يا رسول الله: أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: فليعن مظلوماً. قلت يا نبي الله أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً؟ قال: ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟ ليمسك أذاه عن الناس. قلت: يا رسول الله أرأيت إن فعل هذا يدخله الجنة؟ قال: ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة" (٢)

نبينا صلى الله عليه وسلم يقول لك: إن الغنى غنى القلب والجود هو منبعه، والقلب راع والأعضاء رعية، وهو ملك والجوارح أتباع، فإن نبض بالجود جادت اليد بالمال، وجاد اللسان بالنصح والبيان، وجاد العقل بالفكر والرشاد، وجاد الساعد بالعون والإمداد وكذا في سائر النعم.

وقد علمنا أن النعم وحشية وتقييدها بالشكر، وشكرها الإنفاق منها على من فقدها، فحدد نعمتك أولاً ثم أنفق منها ثانياً، يبارك الله فيها ويزدك منها ألم يقل (لئن شكرتم لأزيدنكم).

انزع شوك الكبر بملقاط التواضع:

_____

(١) الأخرق: الجاهل الذي لم يكن بيده صنعة يكتسب بها.

(٢) رواه البيهقي عن أبي ذر كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٨٦٩.

فإن الكبر عقبة كؤود في طريق خدمة الناس والتذلل لهم بإنفاذ حاجاتهم، ولذا أخرج الإمام أحمد من خبر عبد الله بن حنظلة أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه مر في السوق وعليه حزمة من حطب، فقيل: أليس الله أعفاك من هذا؟ قال: بلى، ولكني أردت أن أدفع به الكبر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر (١)

وهذا سليل بيت النبوة علي بن الحسين كان إذا تصدق في العلن قبّل السائل ثم ناوله، وإذا تصدق في السر خفي خبره عن الناس حتى كشف أمره أثر جرب الدقيق والتي كان على ظهره يحملها بالليل للمساكين(٢)

ومن تواضعهم أن الرجل منهم يصحبه تلميذه يخدمه فيعكس الأدوار ويأخذ البدار. قال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني (٣).

تراحموا لأنهم تواضعوا، وتواضعوا لأنهم تدبروا، ولما تدبروا قدّم أحدهم عصارة تدبره فقال: (تواضع .. فإن التراب لما ذل لأخمص القدم صار طهوراً للوجه) (٤).

عند التسليم:

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه:

لما عقر سليمان الخيل غضباً لله إذ شغله عن ذكره أعاضه الله عنه متن الريح وتسخير الشياطين، ولما ترك الصحابة ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا بأسرها، ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ولما تغيرت أفواه الصائمين له كان خلوف فم الصائم أطيب عنده في الآخرة من ريح المسك، ولما عطش أولياؤه في صيامهم كان جزاؤهم دخولهم من باب الريان لا يدخله غيرهم، ولما بذل الشهداء أرواحهم في سبيله كافأهم بالخلود في نعيمه، ولما تركوا زوجاتهم في الدنيا أبدل الله كل واحد منهم باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين.

استراحة:

_____

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والطبراني عن عبد الله بن سلام كما في ص ج ص رقم ٧٦٧٤.

(٢) الزهد ص ٢٠٨ – أحمد بن حنبل – ط. دار الريان.

(٣) البداية والنهاية (٢٣٥/٩).

(٤) اللطائف ص ٦٦.

أشعار لها معنى
دعا عبد الله بن جحش فقال: اللهم لقني غداً عدواً جلداً أقاتله فيك فيبقر بطني ويجدع أنفي حتى إذا سألتني غداً: فيم ذلك؟ قلت: فيك يا رب، فلما حل المساء إذا أنفه وأذناه معلقتان في خيط، لأن عقد المحبة عندهم فيه شرط يستوجب توقيعه بالدم، وهذا الشرط ساقط عندنا .. لسان حاله:
أجللت ذكركم عن أن يدنّسه ... ... لون المداد فقد سطّرته بدمي
ولو قدرت على جفني لأجعله طرسي وأبرى عظامي موضع القلم
لكان هذا قليلاً في محبتكم ... ... وما وجدت له والله من ألم
بعض الناس يشتري النار لشغفه بها، ويطلب قربها لأنه يحبها، يتقلى بلهيبها لأنه يعشقه لسان حاله هو وأمثاله:
مسترسلين إلى الحتوف كأنما ... ... بين الحتوف وبينهم أرحام
ليس كل ناعم حريراً، وما كل ما لمح بريقه بذهب، من كل ألف صدفة تخرج لؤلؤة واحدة، ومن بين أسراب النحل تولد ملكة فريدة، الندرة رمز الغلاء، والوفرة علامة الرخص، فاعرف قدر نفسك جيداً أيها المؤمن وردد:
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... ... إن النفيس غريب حيثما كانا
مما جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يتكلم بجوامع الكلم، لا فضول فيه ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئاً، ولم يكن يذم ذواقاً (طعاماً) ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها سماحة، وغير ذلك الكثير والكثير مما لا تسعه الصحف أو تجري به الأقلام ألم أقل لكم:
وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

إذا سقطت دموع الندم رفع أثر الزلل، وإذا بكى العبد خوفاً ضحكت الحور شوقاً، عيّ التائب أبلغ من ألف خطبة، ودموع الانكسار أرجى في القبول من مائة عذر وعذر، إذا قست القلوب لم تجد الفصاحة شيئاً، وإذا لانت فالصمت أبلغ أحياناً من الخطب.
بليغ إذا يشكو إلى غيرها الهوى ... ... فإن هو لاقاها فغير بليغ
كما تقترب الشمعة المضيئة من أختها المنطفئة فتضيء منها، كذلك تنجذب القلوب المريضة من القلوب السليمة فتضيء من هداها وتمشي على أنوارها .. كان الرجل إذا أحس قسوة في قلبه ذهب إلى محمد بن واسع فنظر إليه نظرة يعبد الله بها جمعة كاملة ليحكي بعها تفاصيل المقابلة قائلاً:
ودّعت إلفي وفي يدي يده ... ... مثل غريق به تمسّكت
فرحت عنه وراحتي عطرت ... ... كأنني بعده تمسّكت
حمل جعفر بن أبي طالب الراية يوم مؤتة بيمينه فقطعت فالتقطتها شماله قبل السقوط، فقطعت شماله فانتفض عضداه يقومان بالمهمة إلى أن شقه أحد الأعداء نصفين لأن جعفر يؤثر أن يسقط على أن تسقط الراية، ويحب أن يبلي على أن تبلى، ويختار الموت على أن يراها معفّرة في التراب مخاطباً دينه قائلاً له:
أنت لي بدر فلا ... ... عشت إلى يوم محاقك
قاعدة ربانية : يُلبس الله كل إنسان في العلانية الثوب الذي كان يرتديه في السر، والتعليل: لما اجتمع الشيطان مع أعضاء حزبة ليلاً مسح على وجوههم وطمس أنوار بصيرتهم وأطفأ أضواء فطرتهم، فلما طلع عليهم الصبح ظهرت فضيحة: (كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً)، ولما خلا الصالحون بالرحمن ليلاً ألبسهم من نوره لأن من أسمائه النور، ليظهر في الصباح ما كانوا يخفون فيهتدي بهم الحائرون، وأمثال هؤلاء يقولون:
كتمت حبك حتى عنك تكرمة ... ... حتى استوى فيه إسراري وإعلاني

الجنة .. أنشودة الصالحين على مر الزمان، وترنيمة المتقين يدندنون بها عبر الأجيال، عطرها النفاذ له عبيره الخاص وعبقه الذي لا يقاوم .. استنشقه عمير بن الحمام فلم يطق الانتظار .. رأى قطار الشهادة مسرعاً نحوها فخاف أن يفوته، فألقى بالتمرات من يده وركب في أول قاطرة، واستنشقه عبد الله بن رواحة يوم مؤتة فانطلق يغني لها: يا حبذا الجنة واقترابها، ثم جادلها بدمه، واستنشقه سعد بن خيثمة في بدر فما آثر بها أباه الذي رباه لأن الجنة ليست مما يسري عليه قانون الإيثار قائلاً (والله لو كانت غير الجنة لآثرتك بها)

الشوق غامر والحب جارف والصبر نفد فمتى نلقى الأحبة محمداً وصحبه؟؟

أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... ... فيارب قرب دار كل حبيب

مشروع ٩

الدال على الخير كفاعله

وقفة إيمانية

قبل التنفيذ

بين الديك والدجاجة

أيهما أفضل: الداعية في ميدانه أم الزاهد في محرابه؟

التقى ديك ودجاجة في حظيرة ودار بينهما هذا الحوار.. .

الدجاجة: كف عن صياحك أيها الديك !! فإن صوتك قبيح.

الديك: ويحك !! صوتي هو الذي يوقظ النائمين، ويؤنس العباد والقائمين ويبعث الروح في الكسالى والخاملين فكيف يكون قبيحاً؟

الدجاجة: كفاك فخراً بنفسك فصوتي مثل صوتك.

الديك: وهل يقظة كغفلة ؟! في الأسحار أصيح وأنت في الأحلام، ويكفيني فخراً أن خير الخلق صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوتي وثب من فراشه إلى محرابه.

الدجاجة: لكن قوماً أزعجهم صوتك فانهالوا عليك بالشتم والسباب !!

الديك: أموات غير أحياء .. أما سمعوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة ؟!

الدجاجة: فما بال طلب الناس عليّ أكثر؟

الديك: تخدمين دنياهم فيكافئونك بالذبح، وأخدم آخرتهم فيكرمونني بالمدح، وعند مس النار يبين الفرق !!

أرباح المشروع:

الأجور المضاعفة:

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً" (١) لو فكر أحدنا قليلاً وسأل نفسه: إلى من يرجع ثواب هدايته إلى الإسلام لتبادر إلى الذهن فوراً آباؤنا وأمهاتنا ومن بعدهم الأجداد والجدات ثم من بعدهما من وراءهم وصولاً إلى الصحابي الجليل عمرو بن العاص فاتح مصر وناشر الإسلام فيها، والذي ما نحن إلا بعض حسناته، وما من حسنة يعملها أهل الإسلام في مصر إلا وضع له مثلها في ميزانه وميزان أصحابه، وكذا حال أهل العراق مع سعد بن أبي وقاص، وحال أهل المغرب مع عقبة بن نافع.

مات هؤلاء وبليت أجسادهم ومع ذلك لا زال ملك حسناتهم يكتب ويسجل في صحائف أعمالهم ما لا يحصى من عظيم أجر وارتفاع درجة، وسيظل يسجل ويسجل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهل هؤلاء الفاتحون وأشباههم إلا بعض حسنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وأنت إذا أردت أن تنال بعض ما نالوا فابذل كلمة طيبة تنبت لك شجرة طيبة أصلها ثابت في جذر القلب وفرعها بازغ في سماء الأجر تؤتي أكلها كل حين في الدنيا قبل الآخرة بإذن ربها .. إذا علمت أخا لك آية من كتاب الله ظل ثوابها يسجل في صحيفتك كلما قرأها فكيف لو تدبرها ؟! وإذا حضر معك مجلساً إيمانياً أو صلى معك صلاة ليل فكانت سبباً في صلاته كتب لك مثل ما عمل من صالحات

بقية حياته فكيف لو دعا غيره؟ وإذا أهديته كتاباً أو شريطاً فعمل بما فيه نلت مثل أجره فكيف لو سمعه أهل بيته؟ فبالله كيف يغفل عاقل عن هذا الثواب؟ أم كيف تقر عين نائم عن مثل هذا الكنز ؟! يا فوز فوز من وجده .. وياضيعة ضيعة من فقده .. أين داع إلى ربه ؟! أين دال عليه؟! أين مرشد إليه؟ راموا الأجر فسلطوا الدرب وتبعوا الصحب فحازوا القرب، وعند الصباح يحمد القوم السري
علامة إيمان:

_____

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم ٦٢٣٤

قال عز وجل: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر }التوبة: {
كما المطر يدل على السحاب، والشرر يدل على النار، والأثر يدل على المسير كذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدلان على الإيمان، فإذا اندرست آثارهما في قلب عبد دل ذلك على فقده شرطاً من شروط الإيمان وصفة لازمة له وعلامة دالة عليه، وعندها تخمد جذوة الإيمان في القلب ويصير صورة لا حقيقة، وحروفاً لا روحاً، وخيالاً لا واقعاً، ويظل يتضاءل ويتضاءل حتى يصل في المقدار إلى . صفر
قال صلى الله عليه وسلم " ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء دلك من الإيمان حبة خردل" (١)
ومرد ذلك إلى أن المؤمن الحق يغضب لمحارم الله إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون، والإسلام كله حث على تأجيج نار الغيرة على محارم الله، ولما كان الأنبياء أشد الناس غيرة على هده المحارم كانوا أشد الناس قياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى قدر غيرتك يكون إنكارك، وعلى قدر إنكارك يكون إيمانك، فاعلم حقيقة إيمانك قبل أن تصدح في الآفاق بهتاف الإيمان: أنا مؤمن أنا مؤمن
الغربة اللذيذة:
قال عز وجل: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم .. " هود : الآية
وقد استشهد شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه الآية في باب الغربة وهذا يدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة قال صلى الله عليه وسلم " بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس (٢)
ويعلق صاحب المدارج قائلاً:

_____

(١) رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم ٥٧٩٠.
(٢) رواه الآجري في الغرباء وأبو عمر والداني في السنن الواردة في الفتن وله شاهد من حديث سهل بن سعد عن الطبراني رقم ٥٨٦٧ وهو حديث صحيح

"فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم في الناس جداً: سموا (غرباء) فإن أكثر الناس إلى غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذي قال الله فيهم: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله" (١)
أخذ هذا المعنى عبد الوهاب عزام فنظمه في بيتين من الشعر قائلاً:
قال لي صاحب أراك غريباً ... ... بين هذا الأنام دون خليل
قلت بل الأنام غريب ... ... أنا في عالمي وهذي سبيلي
هذي سبيلي: هتاف المؤمنين في كل عصر ومصر، لا يحيدون عنه ولا ينخدعون بغيره ولا يرتجون سواه .. هذي سبيلي: سبيل الأنبياء وورثة الأنبياء ومن رام مرافقة الأنبياء في جنات السماء .. هذي سبيلي .. مهما اشتدت الظلم وهل يضير المصباح حلكة الظلمات حوله ؟! وهل يعيب الجوهرة

وجودها في كوم من الخرز ؟! وهل ينقص قيمة الكنز دفنه بين التراب
هي غربة تميز إذن لا غربة وحشة إذ لا وحشة مع الأنس بالله، ولا وحدة مع مؤاخاة الصالحين من لدن آدم إلى أن يرث اله الأرض ومن عليها.
قطرة الزيت يا سادة علت سطح الماء لما صبرت على العصر وطحن الرحا، كثيفة بما يوحي بغناها، متماسكة بما يدل على تميزها، وكذلك الداعية إلى الخير علا قدره لما صبر على التزام الحق والثبات عليه، وعلا بإيمانه فلم يهبط إلى القاع، وسما بإصلاحه فلم ينشغل بالسفاسف، وأغناه ما بذل فيه من تربية وجهد ومجاهدة ورشد، وارتقى مدارج السالكين ليقبس من أنوار السماء فيضيء ظلمات الورى.
هذه بضاعتكم ردت إليكم:

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٥٧٨

المصلحون هم سبب تنزل الرحمات وحلول البركات التي تعم الخلق كل الخلق والحياة بما حوته الحياة، وهو فضل لا ينسى ويد لا تنكر فكان رد الجميل واجباً: دعاء لهم بالرحمة وطلب بالمغفرة جزاءً وفاقاً.
قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله سبحانه وملائكته حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير" (١)
وريث شرعي:
قال صلى الله عليه وسلم " وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر" (٢)
فمن ورث هذا العلم ودعا إليه فهو عريق في نسب النبوة وإن لم تربطه بالأنبياء رابطة الدم واللحم ووشائج القربى والنسب. قال عز وجل: (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) }فصلت: ٣٣{
فهو وظيفة الأنبياء ولذا فهي اشرف وظيفة وأعظم مهمة وأسمى رسالة وأنبل غاية، والآخرون النهاة يقتفون الأثر ويلزمون النهج، فبهم يقتدي السالك، ويهتدي الحائر، ويوقظ النائم، ويشفى العليل، ويسير الواقف، ويقبل المعرض، ويكمل الناقص، ويرجع الناكص، ويقوى الضعيف، وينهض المتعثر، زاد لكل محتاج، وعون لكل عاجز، ونور لكل تائه، آخذين بحجز الناس عن النار والناس يتدافعون، دافعين إياهم إلى الخير إذ هم في غفلاتهم معرضون، قبضوا أجرهم من الله سلفاً فارتضوا ما أصابهم من الناس تلفاً، أدعيتهم نبوية على رأسها: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، محاسبتهم عمرية مفادها: لو ضلت نفس على شط الفرات لسألنا الله عنها لم لم تهدوها الطريق؟ معاملتهم شجرية: يرميهم الناس بالحجر فيرمونه بالثمر

---

(١) رواه الترمذي والطبراني والضياء عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم ١٨٣٨
(٢) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي الدرداء كما في ص ج ص رقم ٦٢٩٧

ولأنها درجة ترنو إليها كل نفس ويهفو إليها كل قلب فقد استثناها الله من تحريم الحسد فقال صلى الله عليه وسلم " لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" (١)
صمام أمان:
عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً" (٢)
فالمصلحون هم سبب نجاة السفينة، هم قدر الله الذي يدفع قدر الله، قدر الإصلاح الذي يدفع قدر

الإهلاك .. هم أجسام المناعة المضادة التي تحاصر جرثومة الفساد ولا تهدأ أو تستريح حتى تقضي عليها فيبرأ العليل ويشفى السقيم ويزول المرض بإذن الله، وهم صمام الأمن للمجتمع يحول دون غرقه في بحر الرذائل والذي معناه الغرق في عذاب الله، وانغماسه في برك المنكرات والمرادف كانغماسه في حمم النار (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) } هود: ١١٧{
وقد يقول قائل عن حسن نية وسلامة قصد: وهل أنا وحدي سأصلح المجتمع؟ هل أنا حين أؤمن وآمر وأنهى سأنقذ السفينة الهاوية إلى القرار أو الأمة الغارقة في الأوزار؟! كلا !
فحين توجد في مجتمع يوشك أن يتحطم، في سفينة توشك على الهلاك، فلن تقفها وحدك عن النهاية المحتومة، ولن تنقذها وحدك من الهلاك.

_____
(١) رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم ٧٤٨٨
(٢) رواه البخاري وأحمد والترمذي عن النعمان بن بشير كما في ص ج ص رقم ٥٨٣٢

نعم ولكنك تنقذ نفسك، فحتى حين تتحقق السنة التي لا تتخلف .. حتى حين ينفذ الوعد الحق وتتحطم السفينة حتى حينئذ فشتان بين غريق وغريق ! غريق في جهنم لأنه فاجر، وغريق في الجنة لأنه شهيد، فمن ذا الذي يبيع الآخرة بالدنيا ويسعى إلى النار وهو يغرق في حين يملك – حتى وهو يغرق – أن يسعى إلى النعيم ! (١)
الشروط الجزائية
جنازة قلب:
سئل حذيفة بن اليمان عن ميت الأحياء فقال: " الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه"(٢) وهي كلمة لها وزنها نطق بها صحابي خبير بعلامات النفاق وآيات أهله وائتمنه النبي صلى الله عليه وسلم على أسماء المنافقين.
وبانتشار الموتى في الأمة يؤول حالها إلى ما تخوف منه حذيفة حين قال: "يأتي على الناس زمان لأن تكون جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم" (٣) ولذا أرسل ابن القيم صواعق كلامه على هؤلاء فأحرق سترهم وكشف زيفهم وفضح خبثهم فقال: وعلى القادر على الأمر بالمعروف النهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما، وقد غر إبليس كثيراً من الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من الذكر والقيام والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ! وعطلوا هذه العبوديات فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها وهؤلاء عند ورثة الأنبياء – أي العلماء الصادقين – ممن لا غناء فيهم للدين! فإن الدين هو القيام لله بما أمر به.
وأي دين وأي خير فيمن يرى محار م الله تنتهك وحدوده تضيع ودينه يترك وسنة رسول يرغب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس
وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون وهي موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه له ولرسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل" (٤)
دعاء مردود:

_____
(١) قبسات من الرسول ص ١٧١
(٢) إحياء علوم الدين (٣٣٨/٢)
(٣) السابق
(٤) زاد المعاد

تولد كلمات الدعاء على أطراف اللسان فينفخ فيها القلب من روحه فتصعد الروح إلى بارئها (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)، وهل عمل الداعية إلا كلم طيب يدل به على الله وعمل صالح يصدق هذا الكلم، فإن مات القلب بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولدت كلماته ميتة لتدفن في باطن الأرض بدلاً من أن ترتقي مدارج السماوات، ولتواري بدلاً من مجاورة السحاب.

قال صلى الله عليه وسلم : " لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" (١)

الهلاك

ينص القانون الإلهي على أن تزول العذاب وهلاك الأمم مرتبط بارتفاع نسبة الخبث لقلة المصلحين.

سألت أم الحكم زينت بنت جحش النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث(٢)

ومن مظاهر انتشار الخبث إظهار المعصية وعدم إخفائهما بل والتبجح بفعلها، لذا قال بلال بن سعد" إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة" (٣)

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثراً أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه – أي لم يتغير – فيّ يوماً قط.

أول النقص:

_____

(١) رواه الترمذي عن حذيفة كما في ر ص رقم ١٩٨

(٢) متفق عليه كما في ر ص رقم ١٩٤

(٣) إحياء علوم الدين

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ثم قال:" لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم" إلى قوله "فاسقون" }المائدة: ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١{ (١)

هذه خطة إبليس وهذا أول النقص: يبعث المنكر على العباد فإذا كانوا مصلحين فأنكروه فقد قطعوا عليه الطرق، وإذا لم ينكروه نزع الشيطان من قلوبهم كراهية المنكر – التي جبلوا عليها بالفطرة – شيئاً فشيئاً ثم استبدل به حب هذا المنكر فيأمرون به وينهون عن المعروف.

وبين الخطوة الأخير وأول خطوة: كيد ومكر وخديعة وغي قد يستغرق زمناً طال أو قصر، لكن مفتاح الدخول لا يملكه الشيطان إلا أن يسلمه له العبد بيده ليفتح به وهذا هو أول النقص.

_____

(١) رواه أبو داود والترمذي

واعدوا
IKHWANWIKI.COM